الباب الرابع

سجين ثورة ١٩١٩ ..

مذكرات الدكتور محمد مظهر سعيد

(١)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بأن نعرف بصاحبها فى إيجاز فنقول : إن محمد مظهر سعيد واحد من رجال التربية والتعليم القدامى، كان له دور مهم فى قيادة مظاهر العصيان فى ثورة ١٩١٩ فى مدينة أسوان، وتعرض بسبب دوره فى هذه الثورة إلى حكم بالإعدام، وكاد الإعدام ينفذ فيه لولا أن ألغى الحكم قبيل التنفيذ بدقيقة أو أقل قليلاً، وحول إلى محكمة عسكرية لتعاد محاكمته، وقد حصل على البراءة، وعاد إلى حياته المدنية، وانخرط فى الحياة العامة والوظيفية حتى كاد دوره ينسى، لكنه فى الستينيات وجد فرصة مناسبة فسجل هذا الدور، وخاطب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى وأستاذ التاريخ الحديث الدكتور محمد أنيس فى ١٩٦٣ وأرسلا إليه رسالتين نشرهما فى مذكراته، وفى ١٩٦٩ مكنته الاحتفالات بمضى ٥٠ سنة على ثورة ١٩١٩ من فرصة نشر كتاب مذكراته فى سلسلة «اقرأ» الشهيرة التى تصدر عن دار المعارف، وقد حرص على أن يضع فى مقدمة كتابه الرسالتين اللتين جاءتاه من المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى، ومن أستاذ التاريخ الحديث الدكتور محمد أنيس، والرسالتان، كما سنرى فى نهاية هذا الباب، تثنيان على تسجيله لدوره فى تسجيل الوقائع التى شارك فيها، بل وكان فيها بمثابة البطل.

(٢)

نبدأ بلفت النظر إلى أن محمد مظهر سعيد فى هذا الكتاب يروى مذكراته بثقة واطمئنان بالغين إلى دقة ما يرويه من وقائع وكأنها هى الحقائق بذاتها، ومن حسن حظ

الدكتور محمد مظهر سعيد أن المكتبة العربية تخلو من مذكرات أو وثائق أخرى تتناول جزئيات الموضوع الذى يتناوله بالقدر ذاته من التفصيل.

وعلى كل الأحوال فستدارس فى هذه المذكرات الظروف التى أوجدته فى زمن الثورة لكى يؤدى ما قدر له أو ما قدر عليه من هذا الدور الذى قدر له أن يؤديه، وإن كان لابد لنا من الإشارة إلى أن هذه المذكرات لم تظهر فترة الستينيات إلا أن بعد غلفها صاحبها فى مهارة بمجموعة من الفقرات المنتقاة التى حرص على أن يضعها فى مقدمة كتابه، وقد انتقاها من كتاب «فلسفة الثورة»، ومن خطبة الرئيس عبد الناصر فى الشرقية فى ٢٢ يناير ١٩٥٦، ومن خطابه فى يوم ١٩ يونيو ١٩٥٦، ومن الباب الثالث فى ميثاق العمل الوطنى، وقد مضى التاريخ فإذا بهذا التغليف يكاد ـ كطبائع الأمور ـ يقتصر على ما أداه من دور مرحلى، وإذا المذكرات نفسها كفيلة بتقديم نفسها من دون هذا التغليف، وإذا بمضمونها أوضح من أن يحتاج إلى مثل هذه المبررات.

(٣)

بعد كل ما قدمه صاحب هذه المذكرات من أغلفة ومسوغات.. يشير محمد مظهر سعيد إلى السبب العميق الذى دفعه إلى تسجيل مذكراته، وإلى السبب الحقيقى الذى أجل تسجيل ونشر هذه المذكرات، ونحن نراه يلجأ إلى أسلوب مناور فى تفسير هذا التأخير، وتبرير توقيت النشر الجديد فيقول:

«... إن أحداً لم يذكر ثورة إقليم أسوان، رغم ما كان لأهله من دور كبير خطير مشرف فيها، بل إن أبناء أسوان البارزين، وعلى رأسهم المرحوم اللواء صالح حرب، والأستاذ عباس محمود العقاد، لم يسجلوا شيئاً عنها لأنهم كانوا بعيدين عن مسرح الحوادث فى ذلك الوقت، ونحن الذين قمنا بها، واكتوينا بنارها... منعتنا الظروف القاهرة من التحدث أو الكتابة عنها، فقد اشتبكنا بعدها فى قضايا سياسية أخرى، وكان مجرد ذكر اشتراكنا فى ثورة ١٩١٩ يسىء إلى مركزنا وعملنا وأمتنا إساءة بالغة، وربما زج بنا فى السجن مرة أخرى، ثم سافرت إلى إنجلترا لدراسات التخصص العليا عدة سنوات، وعدت بعدها سنة ١٩٢٩ فى عهد حكومات رجعية لا تطيق مجرد

الإشارة للثورة، فضلاً عن الإشادة بها، لما فى ذكرها من نبش لماضى الجهاد الذى دفنوه، وإثارة للشعور القومى من جديد ضد الاحتلال والحكم المحلى الفاسد. ومرت سنوات طويلة وأصبحت الثورة نسيًا منسيًا، وتضاءلت أمام الثورات المتعاقبة حتى سنة ١٩٣٥، وجاءت ثورة ١٩٥٢ البيضاء المباركة، وأشاد بطلها ورائدها الرئيس جمال عبد الناصر فى مختلف المناسبات بجهود السابقين وتضحياتهم فى ثورتى ١٨٨١ و١٩١٩».

. . . .

على هذا النحو وجد محمد مظهر سعيد فرصته فى أن يخلص نفسه من ورطة الظهور بمظهر الحريص على تسجيل أحداث بعد فوات الأوان المناسب لتسجيلها، بينما كان فى وسعه أن يسجل هذه الأحداث فى مرحلة سابقة كانت ترحب بمثل هذا التسجيل، وهو يحل هذه المفارقة حلاً تلفيقيًا غير موفق، لاجئًا إلى الهجوم على العهد القديم الذى تلا ثورة ١٩١٩، وصانعًا فى الوقت نفسه ما يتناقض مع هذا الهجوم من مصالحة وطنية جميلة بين ثورات ١٨٨١ و١٩١٩ و١٩٥٢ على الرغم من أن الواقع لم يكن على هذا النحو لكن ظروف تلك الأيام لم تكن ـ كما نعرف ـ تسمح بغير هذا.

(٤)

يشرح محمد مظهر سعيد أهمية ثورة أسوان من وجهة نظره، مشيرًا إلى نجاح هذه الثورة فى تجنيب مصر ويلات تصرف خاطئ ومدمر فيقول:

«. . . وعلى الرغم من أن ثورة أسوان لم تقترن بالعنف والفوضى والتخريب والتقتيل، ولم يصبها من ويلات السلطة العسكرية البريطانية إلا النزر اليسير بالقياس إلى ما أصاب الجهات الأخرى، كالقاهرة والعزيزية والواسطى ودير مواس، فإنها أدت للبلاد خدمات جليلة كان يجب أن تسجل لها بالفخر، ويكفى أن نذكر إحباط الخطة التى دبرها المهندسون الإنجليز لنسف خزان أسوان، ولو قدر لها الشيطان أن تنجح لكانت كارثة كبرى».

(٥)

يتحدث محمد مظهر سعيد فى التعريف بنفسه عن العوامل التى دفعته بطريقة غير مباشرة إلى الاشتراك فى ثورة ١٩١٩ والحركة الوطنية على نحو ما أتيح له أن يشترك، ونرى فى هذا التعريف الذى يقدمه الرجل أن الاشتراك فى الحركة الوطنية كان أمراً طبيعيًا فى حالة كل وطنى سوى يؤمن بدينه ووطنه ويشعر بواجبه نحوهما، ويشير محمد مظهر سعيد إلى أن والده نفسه كان شاهداً على معاناة المهنيين البارزين فى جيله من نفوذ الاستعمار الإنجليزى، وتربصه المستمر بالوطنيين الناجحين، ويستطرد محمد مظهر سعيد إلى رواية ما لمسه هو نفسه من اضطهاد الأجانب للمصريين وتفضيلهم الأجنبى فى الوطن المحتل عليه وعلى أمثاله من أبناء وطنه. . . وهو يقول:

«ولدت أنا (محمد مظهر سعيد) فى ٢٠ أغسطس ١٨٩٧، ونشأت فى أسرة غرست فى نفسى منذ النشأة الأولى بذرة حب الدين والوطن وروح الثورة والجهاد ضد أعداء البلاد، وكراهية النفوذ الأجنبى المفسد المستغل، والحكم الداخلى الفاسد المستبد».

« . . . كان أبى مهندسًا فرنسى الثقافة، بعد أن تخرج فى مصر أتم تدريبه الميكانيكى بفرنسا، والبحرى بتركيا، وعاد إلى نظارة الأشغال العمومية فلقى من رؤسائه الإنجليز عنتًا كبيراً كأنهم حسبوه فرنسيًا، وواتته فرصة التخلص منهم عندما ندب مهندسًا بشركة السكر فى فابريقة الشيخ فضل مركز بنى مزار، ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار».

«ولمست أنا بنفسى، على صغر سنى، هذه التفرقة عند اللحاق بمدرسة الشركة (يقصد: شركة السكر)، ولم تكن هناك مدرسة غيرها، فالدراسة فرنسية، والكتب تشيد بمجد فرنسا الأم، والدروس تنتهى بهتاف «تحيا فرنسا»، والأولاد الأجانب لهم فصول وملاعب وامتيازات خاصة، ونحن نتعلم بمصروفات وهم بالمجان، فبدأت وأنا فى الخامسة من عمرى أشعر بما يشعر به أبى من كراهية للأجانب».

(٦)

ويعود محمد مظهر سعيد بذاكرته إلى بعض ما ترسب فى أعماق هذه الذاكرة من

وعى بحكايات الطفولة التى أوردتها جدته على مسامعه، وهو يشير فى سياق حديثه هذا إلى انتساب جدته إلى سلالة عبد الرحمن كتخدا، وإلى انتسابه من ناحية أبيه إلى صالح بك سليمان أركان حرب الجيش المصرى فى السودان.

ومن الجدير بالذكر أن صاحب المذكرات فى أثناء حديثه عن الثورة فى أسوان يشير إلى أن جده الكبير لطيف باشا كان حاكمًا عامًا للسودان سنة ١٨٥٠ قبل الثورة المهدية، وإلى أن جد صديقه حبيب كان من كبار نقباء الميرغنية فى السودان.

ومع أن محمد مظهر سعيد يشير إلى أن جدته أم والدته كانت عربية، فإنه يحرص أيضًا على أن يشير إلى أن ثقافة والدته كانت إيطالية(!!) دون أن يشير إلى السبب فى هذه الثقافة، ولا إلى حقيقة جنسية والدته، ومن الطريف أننا نرى وسط المذكرات إشارة إلى أن والدته كانت إيطالية الجنسية، ولسنا ندرى هل كانت كذلك أم أنه زعم هذا الزعم فى إحدى المرات لمجرد التخلص من موقف من المواقف الحرجة التى قابلها فى أثناء نشاطه فى الحركة الوطنية، ومع هذا فإننا نراه حريصًا فيما يروى على أن يثبت أن والدته كانت ذات ثقافة غربية تمامًا فى سلوكها وفى طباعها:

«... كنت أزور أم والدتى بأسيوط، وهى تحكى لى عن أجدادى من قادة الجيوش، وأمراء البحار الذين حاربوا واستشهدوا دفاعًا عن الملة والدولة، وآخرهم لطيف باشا الكبير الذى كان حاكمًا عامًا للسودان قبل الثورة المهدية، ووزيرًا فى عهد إسماعيل، ومع ذلك كان من مؤيدى الضباط المصريين ضد حكومة نوبار، والوزراء الأجانب، والخديو نفسه».

«وكنت أزور أم والدتى العربية فى بنى سويف فتحكى لى عن أبطال الإسلام، وعدل عمر، وصلاح عمر بن عبد العزيز، وبطولة خالد بن الوليد، وأبى عبيدة بن الجراح، وتذكرنا بتاريخ جدها الأكبر عبد الرحمن كتخدا، نائب والى مصر وشيخ البلد الذى كرس حياته لتعميره وإصلاح حال الشعب، فاستوجب غضب الأمراء المماليك، مما اضطره فى أواخر أيامه إلى الهجرة للحجاز، وتختم الحديث بالفاتحة على روح جدى زوجها صالح بك سليمان أركان حرب الجيش المصرى، الذى استشهد فى السودان فى موقعة شندى».

«وكانت أمى بحكم ثقافتها الإيطالية تحكى لى عن ماتسينى، وجاريبالدى محرر إيطاليا وموحد ولاياتها».

(٧)

يشير محمد مظهر سعيد فى هذه المذكرات إلى أولى التجارب السياسية التى شارك فيها، والتى كانت نتيجتها أن فصل من المدرسة، ونحن نفهم من هذه القصة أن بذور روح الثورة كانت قد فرضت نفسها على هذا الرجل منذ طفولته الباكرة، ونحن نرى رد العقل الذكى عند أهل هذا الطفل فقد حافظوا له على سياق سنواته الدراسية وألحقوه بمدرسة بنى سويف حيث موطن جدته، ومن أجل هذا غيروا اسمه إلى اسم آخر غير ذلك الذى سجل به فى شهادة الميلاد، ومن الطريف أنه عاش حياته بالاسم الجديد الذى سمى به تيمنا باسم عم والده المهندس المصرى العظيم محمد مظهر، وهذه هى القصة التى ينفرد صاحب المذكرات بروايتها، والتى لم نجد لها أثراً فى مصدر آخر، على الرغم من أنها حفية بالتدوين والتسجيل والفخر:

«بدأت تجاربى السياسية القاسية سنة ١٩٠٦ عقب مذبحة دنشواى، وأنا فى الثامنة من عمرى بالسنة الأولى بمدرسة عباس الابتدائية بالقاهرة، بعد أن نقلوا والدى إلى نظارة الأشغال، فقد زار المدرسة مفتش إنجليزى، ورأيت وجهه الأحمر، وطربوشه القذر فثارت ثائرتى وقلت لزملائى: هذا جلاد دنشواى، وسرعان ما قمنا بمظاهرة لعلها أول مظاهرة قام بها التلاميذ فى مصر، وأخذنا نهتف: «فليسقط جلاد دنشواى»، «فلتسقط إنجلترا»، وهرول الناظر أحمد بك كامل اليمانى إلى الشرفة وخلفه المفتش يتميز غيظًا، فأشار نحوى وقال للناظر: «هات الولد ده»، وسرعان ما أمسك بى الفراش العملاق وألقى بى أمامهما، وقال المفتش فى حدة وانفعال: «حضرة ناظر.. دى ولد مش كويس.. لازم طرده من المدرسة»، فأجاب الناظر فى تردد: لكن ياجناب المفتش دا طفل صغير لا يعرف ما يفعل، فأجاب جنابه: بكره لما يكبر يبقى مجرم ضد انجلترا زى مصطفى كامل، افصله نهائيا، فأجاب الناظر: ليس الفصل النهائى من حقى، فقال المفتش: افصله أسبوعا وبعدين ييجى أمر جناب

المستشار، وقبل نهاية الأسبوع جاء الأمر بالفصل النهائى لتلميذ صغير فى الثامنة من عمره يهدد الإمبراطورية البريطانية عندما يكبر مثل مصطفى كامل».

. . . .

«وكان من الممكن أن ألتحق بنفس المدرسة فى العام التالى لأنها المدرسة الأميرية الوحيدة بالحى، ولكن تضيع منى السنة، وأنا مجتهد لا أريد أن أفقد سنة من عمرى، فلم يكن هناك بد من الرحيل إلى جدتى فى بنى سويف وأتقدم لامتحان القبول للسنة الثانية باسم جديد بدل اسم شهادة الميلاد، وهو محمد حسن سعيد، فصار اسمى محمد مظهر سعيد تيمنًا باسم عم والدى المهندس محمد باشا مظهر، ونجحت فى الامتحان ودخلت السنة الثانية، وكان ناظر المدرسة أحمد بك حسن صديقًا لوالدى وعمى فلم يثر أى إشكال».

(٨)

ويتحدث محمد مظهر سعيد أيضًا عن تجربة وطنية مبكرة أخرى أعقبت التجربة الأولى بعامين، حين قدر له أن يلقى كلمة فى تأبين الزعيم مصطفى كامل، ونقتطف للقارئ من فقرات محمد مظهر ما يصور به صدى الكلمة التى ألقاها فى هذه المناسبة، ومدى ما منحته هذه المناسبة من ثقة مبكرة فى توجهه الوطنى، خاصة بعدما أعقبها من ثناء أستاذه عليه، ووشاية ضابط المدرسة به، وما ترتب عليها من عقوبة:

«. . . وفى سنة ١٩٠٨ توفى مثلى الأعلى مصطفى كامل إلى رحمة الله، وأقام المحامون حفل تأبين، واختارنى المحاميان الشقيقان سيد زكى ومحمود كامل، وكانا صديقين حميمين لعمى، لإلقاء كلمة أعدها مدرس اللغة العربية، فيها نثر وشعر، وألبسونى شريطًا من الحرير الأسود على قميص أبيض، وصعدت إلى المنصة».

. . . .

«. . . وارتجت القاعة بالتصفيق الحاد المتواصل، ففزعت من هذا الموقف ونزلت من المنصة مسرعًا والدموع فى عينى وأنا أحيى صورة مصطفى كامل، وأسرع الأستاذ سيد زكى فتلقانى واحتضننى وقبلنى وقال: هذه أبلغ خطبة يامظهر، ستكون مصطفى

كامل الثانى، وفى هذه المرة وشى بى ضابط البوليس المصرى، ففصلت من المدرسة أسبوعين بأمر الوزارة لاشتغالى بالسياسة، وكانت كلمة السياسة بعبعًا يقض مضاجع الحكومة، ولو كان السياسى طفلاً مثلى فى العاشرة من عمره، ورغم ذلك نجحت بتفوق وانتقلت للسنة الثالثة».

(١٠)

ويروى محمد مظهر سعيد أنه كان بعد حصوله على الابتدائية يفكر فى دخول المدرسة الحربية ليكون ضابطًا، لكنه كان صغير السن، وقد تمكن والده من النجاح فى توجيهه إلى العلم ضاربًا على وتر الوطنية الظاهر فى تصرفاته، ومع أن ما يرويه محمد مظهر سعيد يبدو عاديًا أو طبيعيًا فإن تفرده فيما يتعلق بالحركة الوطنية كبير، إذ أنه يدحض القول الشائع بأن بذور هذه الحركة وبداياتها لم تكن بهذه القوة فى مثل هذا الزمان:

«. . . وحصلت على الشهادة الابتدائية سنة ١٩١٠، وكنت أتمنى أن كون ضابطًا بالجيش أدافع عن الملة والدولة كما كانت جدتى التركية تقول، وكانت المدرسة الحربية تقبل حاملى الابتدائية وساقطيها، ولكن من المستحيل أن تقبلنى لصغر سنى، وعدت إلى القاهرة فقابلنى أبى بالتهنئة والترحيب، وقال لى فى رقة وحنان: اسمع يابنى، أنا معجب بوطنيتك التى ظهرت بوادرها مبكرة، وإن كانت عرضتك لتجارب خطيرة، ولكن الله سلم فى المرتين، وأنت بعد طفل غرير ومازلت فى طور التحصيل والطريق أمامك طويل، والوطنية الحقة لا تكون بالقول، وإنما بالعمل، ولا عمل بغير علم، فإن كنت وطنيًا حقًا فعليك أن تتفرغ لتحصيل العلم لا يصرفك عنه شىء، وعندما تحصل على المؤهل العالى افعل ما شئت، وكن زعيمًا كمصطفى كامل».

(١١)

وينتهز محمد مظهر سعيد فرصة حديثه عن دراسته للمرحلة الثانوية فى المدرسة الخديوية ليحدثنا، حديث التربوى القديم والوطنى المثابر، عن بذور اكتشافه لحقيقة

سياسة المحتل البريطانى فى اختيار مدرسى هذه المرحلة، وهو يجاهر بأن أسلوب هذا الاستعمار كان دليلاً على زيف الأسطورة البريطانية، ويصل محمد مظهر سعيد إلى حد تكرار قول غير مشهور بأن مستشار التعليم الإنجليزى الأشهر دنلوب كان إسكافيًا فى الأصل:

«والتحقت بالمدرسة الخديوية الثانوية، واتصلت اتصالاً مباشرًا بالإنجليز لأول مرة، وكنا وقتئذ ندرس جميع المواد باللغة الإنجليزية ما عدا العربى والرياضيات».

. . . .

«. . . أما المدرسون البريطانيون فكانوا خليطًا عجيبًا النقاب عن زيف أسطورة بريطانيا العظمى، والرجل الإنجليزى السوبرمان، فكان منهم قلة جديرة حقًا بالاحترام، الناظر المستر فيرنس الإيرلندى كان يعامل الطلبة كأنهم أولاده، ويرعى أعضاء الفرق الرياضية عامة، وفرقة القسم المخصوص فى الجمباز خاصة، وكنت أنا أحد أبطالها، والمستر هيث الاسكتلندى الوقور كان يشجعنى ويهدينى كتب الأدب الإنجليزى لتفوقى فى اللغة، واتخذنى سكرتيرًا له، والمستر براكنبرى العالم اللغوى كانت له كتب مقررة فى متن اللغة، أما البقية فكانوا جهلاء أدعياء، لا يحملون أى مؤهل علمى أو تربوى، فالمستر فوستر سميث كان بائع إسفنج، ولكنه خطاط (كاليجرافى)، وله أمشق خط مقررة، والمستر لوكاس كان جاويشًا بالجيش البريطانى، ومؤهله الرسمى أنه لاعب كرة ونطاط ورقاص، ومع ذلك يدرس لنا الجغرافيا، ومدرس التاريخ المستر فاولر لا نعرف أصله، ولكنه أجهل الناس بالتاريخ، فكان يقرأ لنا كتاب «دينوف» المقرر كأنه كتاب مطالعة، ويتركنا نحفظه عن ظهر قلب».

«وتلك كانت خطة الاستعمار التى ينفذها المستشار المستر دنلوب، فهو نفسه يقال إنه كان إسكافيًا، وكان هؤلاء الذين يحملون إلى جانب نقيصة الجهل رذيلة الغطرسة، يشتدون فى طلب العقاب لأقل هفوة لولا أن الناظر الأيرلندى كان يكبح جماحهم».

«واجتزت مرحلة الثانوى بنجاح مطرد وتفوق، وحصلت على البكالوريا علمى سنة ١٩١٤ وأنا فى السادسة عشرة».

(١٢)

هكذا يتحدث محمد مظهر سعيد عن نجاحه فى البكالوريا فى ١٩١٤ قافزًا مباشرة إلى ما يتبناه من رؤية بعض المؤرخين(!!) القائلة بأن ما حدث فى ثورة ١٩١٩ كان نتيجة حتمية لثورة وطنية مبكرة حدثت عام ١٩١٤، وهو يروى قصة اللقاء العاصف بينه وبين المستر كيتنج ناظر مدرسة الطب الإنجليزى، وكيف كان حفاظه على كبريائه سببًا فى فقدانه لمكانه الطبيعى طالبًا فى كلية الطب رغم محاولات والده علاج الموقف، وهكذا تحول مسار حياته إلى أن يكون طالبًا فى مدرسة المعلمين العليا:

. . . .

«يرى بعض المؤرخين أن ثورة ١٩١٩ كانت نتيجة حتمية لأحداث سنة ١٩١٤، ومهما يكن من أمر هذا الرأى فإن سنة ١٩١٤ كانت بالنسبة لى شخصيًا سببًا مباشرًا للدور الذى شاءت الأقدار أن أقوم به فى ثورة أسوان سنة ١٩١٩، فقد قدمت أوراقى لمدرسة الطب وانتظرت النتيجة، وفى فترة الانتظار أعلنت الحرب العالمية الأولى، وفى ٤ أغسطس أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا، وانضمت لحليفتها فرنسا، وفى اليوم التالى صدر قرار لمجلس وزراء مصر يخول القوات البريطانية البرية والبحرية حقوق الحرب فى الأراضى والمياه المصرية، وقد أثار هذا القرار سخط طلبة المدارس العليا والمثقفين والصحافة عامة، والحزب الوطنى خاصة».

«وفى أواخر سبتمبر دعينا نحن الطلبة الجدد لمقابلة ناظر مدرسة الطب الدكتور كيتنج، وكان رجلاً استعماريًا قحًا، غريب الأطوار، وحاكمًا بأمره يدير المدرسة كما يحلو له، غير خاضع لسلطة الوزارة وقوانينها ولوائحها، ولا للمعتمد البريطانى نفسه، وكان من شذوذه أن يقف الطالب أمامه وقفة انتباه عسكرية، فيلقى سؤالاً بالإنجليزية ويترجمه إلى العربية سكرتيره الحاصل على الابتدائية بلغته الركيكة، ثم يترجم رد الطالب إلى الإنجليزية».

. . . .

«. . . ولما جاء دورى نظر كيتنج إلى السكرتير بغضب وقال:

«ماذا يفعل هذا الطفل فى مدرستى؟ وكيف دخل؟ إنها ليست روضة أطفال،

فأجبته بالإنجليزية منفعلاً ومحتجًا : أنا لست طفلاً ، وهذه مدرسة مصرية وليست مدرستك ، وحدثت مشادة حامية أنهاها هذا العملاق الأحمق بركلة قوية من رجله الضخمة طرحتنى أرضًا ، فجريت هربًا منه فطاردنى حتى باب المدرسة ، ثم فصلنى وأعاد الأوراق بالبريد لوالدى ، وذهب والدى إلى كبير المهندسين الإنجليز يرجوه التدخل فى الأمر معتقدًا أنه سينصفنى ، فأحاله إلى مستشار الرى السير جارستن فأعطاه خطاب توصية ، ما كاد الدكتور كيتنج يلقى عليه نظرة عابرة حتى مزقه ، وألقى به فى سلة المهملات وطرد والدى شر طردة ، وكان تعقيب المستشار بعدئذ أن الدكتور كيتنج حر فى مدرسته ولا يستطيع أحد أن يراجعه فى شىء ، وعلى كل فهو دائمًا على حق لأنه إنجليزى ، والإنجليز لا يخطئون ولا يُلامون ، وزادنى هذا الحادث كراهية للاحتلال والاستعمار ، وأصبحت أعتقد أن الإنجليز لا يخطئون ولا يظلمون فحسب ، وإنما هم يظلمون ويبررون الظلم بأنهم معصومون» .

«ولم يكن بد من اللحاق بمدرسة المعلمين العليا لأن المدارس الأخرى كانت قد استوفت حاجتها من الطلاب» .

(١٣)

هكذا ينتقل محمد مظهر سعيد بكل ما فى صدره من وطنية للدراسة فى مدرسة المعلمين العليا ، وهو ينتهز أول فرصة تسنح له فى هذه المدرسة كى يعبر عن مشاعره الوطنية المسيطرة على وجدانه ، وتنبئنا القصة التى يرويها محمد مظهر سعيد عن أن مجادلة البريطانيين كانت لاتزال ممكنة رغم فرضهم الحماية على مصر :

« . . . وبدأت الشرارة الأولى بمدرسة المعلمين العليا فى اليوم التالى لإعلان الحماية ، إذ دخل المستر هاردى أستاذ الطبيعة بغير طربوشه مخالفًا التقليد المتبع لأول مرة وفى عروته وردة حمراء كبيرة ، وتطلع إلينا فى زهو وكبرياء ولم يلق التحية كالمعتاد ، وفاجأنا بقوله فى صلف وغطرسة ، وكأن هذا الحمل الذى كان وديعًا انقلب (ذئبًا كاسرًا) «اسمعوا يا أولاد مصر ، أنتم من اليوم رعايا بريطانيا العظمى ، سواء رضيتم أم أبيتم ، وأهنئكم على هذا الشرف العظيم الذى لا تستحقونه» ، فوجمنا قليلاً

وألجمت الدهشة ألسنتنا، ثم هب الطالب محمد حبيب أحمد رفيق الجهاد والثورة، وقال بصوت جهورى: اسمع يا مستر هاردى، أولا نحن لسنا أولادًا وإنما نحن رجال، فانبريت بدورى قبل أن يتم كلامه وقلت: وثانيًا، نحن لسنا رعايا بريطانيين، ولن نكون كذلك أبدًا. . نحن مصريون مستقلون ولنا الشرف أن نكون ونظل كذلك، أما أنتم فمستعمرون، مغتصبون، وساد الهرج والمرج، وصاح بقية الطلاب: اخرج. . اخرج، فغادر الفصل غاضبًا وشكانا للناظر «أ. ب. بك» الذى عنفنا أمامه تعنيفًا شديدًا وطلب منا الاعتذار له فأبينا ففصلنا أسبوعًا، فذهبت إلى المستر فيرنس ناظر الخديوية المجاورة، ثم إلى ضابط المدرسة صالح بك وكان صديقًا لوالدى، وذهب (حبيب) إلى أستاذ الرياضيات المستر شوبردج، وكان محبوبًا من الطلبة، وعرضنا عليهم الموضوع، فذهبوا ثلاثتهم إلى الناظر وأقنعوه بخطأ هاردى لتدخله فى السياسة، وجرحه لشعور الطلاب، فعدنا إلى المدرسة بعد يومين ولكن هاردى ظل على عناده وامتنع عن التدريس أسبوعين».

(١٤)

ولأن الجرة لا تسلم فى كل مرة، فسرعان ما جاءت الفرصة لعقاب محمد مظهر سعيد وأمثاله على وطنيتهم التى دفعتهم إلى إفساد زيارة السلطان حسين كامل لمدرسة المعلمين فى عام ١٩١٥، وهى واقعة تدل على مدى ما كان هذا العهد كفيلاً به من بساطة فى البروتوكول وما كانت هذه البساطة كفيلة بأن تحققه من أن تتيح للمشاعر الوطنية أن تجد طريقها إلى الظهور فى يسر شديد مهما كانت النتائج والمعقبات:

«وفى أوائل ١٩١٥ أخطرت السراى المدرسة بالاستعداد لزيارة السلطان لها».

. . . .

«وأخذت المدرسة تعد العدة للزيارة، ونحن من جانبنا نعد عدتنا لإفسادها، فأعددنا أربطة رقبة سوداء، وأعد بعضنا قمصانًا سوداء كذلك، وكبار السن لم يحلقوا ذقونهم، وفى صباح يوم الزيارة حضر مندوب السراى وسكرتير عام الوزارة لاستعراض طابور الاستقبال والاطلاع على بقية الترتيبات، وذهلا عند رؤية الأربطة

والقمصان السوداء، ولكن ماذا يفعلان وموكب السلطان فى طريقه من سراى عابدين، ودخلت عربة السلطان وحولها الحرس إلى فناء المدرسة حيث وقفت الطوابير، وهتف الناظر ثلاثًا بحياته فلم يجبه إلا بعض طلبة الدبلوم، واندفع الطالب قاسم خليل نحو العربة وهتف: تحيا مصر، ونزل السلطان مهرولاً والوزير وبقية الركب فى أثره، ومكثوا قليلاً فى حجرة الناظر حتى يدخل الطلبة الفصول، ثم بدأوا الطواف، ودخل علينا السلطان وكان المستر شوبردج يلقى درسًا بالعربية فى الجبر العالى، وأنصت السلطان متعجبًا ثم قال لمن حوله: «ما شاء الله، الخواجة يتكلم عربى، عفارم، عفارم»، فضج الطلاب بالضحك وقالوا: «عفارم.. عفارم»، فارتبك السلطان وخرج مهرولاً، وفى معمل الكيمياء أعدوا غاز الأيدروجين المكبرت الكريه الرائحة، فلم يطق السلطان صبرًا فبارح المدرسة على عجل، حانقًا غاضبًا، ولم يكمل الزيارة، وكان لهذا الحادث وقع الصاعقة على رءوس الوزير والسكرتير العام والناظر».

. . . .

«... وبعد قليل صدر أمر مجلس الوزراء بفصل بعض الطلبة مددًا تتراوح بين أسبوع وشهر وسنة، وكانت أفدح العقوبة من نصيبنا نحن الاثنين (محمد حبيب أحمد، وأنا)، الفصل النهائى والحرمان من التعليم العالى ووظائف الحكومة لمدة خمس سنوات تنتهى فى أكتوبر ١٩٢٠».

(١٥)

هكذا كان على محمد مظهر سعيد أن يواجه حاضرًا قاسيًا ومستقبلاً مظلمًا، وإذا هو يكتشف أن اسمه قد وضع فى قائمة سوداء تمنعه من السفر إلى إنجلترا وإلى تركيا، وحتى من القيد فى مدرسة الحقوق الفرنسية، فضلا عن تعرض بيته للتفتيش من آن لآخر، وهو شأنه فى هذا شأن الذين يعانون من مثل هذه الإجراءات التعسفية يحس بالضيق، ويحس فى الوقت ذاته بطبيعة المشاعر الإنسانية التى تقدر موقفه لكنها تتحفظ فى إبداء هذا التقدير.

ونحن نعجب حين نرى تصوير صاحب المذكرات لكل هذه المعاناة فى ذلك العهد الذى لم يشتهر بهذا النمط من معاملة الخصوم السياسيين، لكننا لا نستطيع أن ننكر على صاحب المذكرات ما يرويه مما أثر بالفعل فى مستقبله:

«... وحاولت السفر للخارج لإتمام التعليم العالى حتى ولو فى الجامعة الأمريكية ببيروت فلم تسمح الحكومة، وكانت بريطانيا هى التى تتولى الشئون الخارجية لمصر وقتئذ، وبمساعى بعض أصدقاء والدى الأتراك قبلتنى كلية الطب بالآستانة وقدمت طلب السفر للقنصل البريطانى فرفضه ساخراً وقال: لا نريد أن ننفيك ونعزلك كعباس الثانى، وقدمت طلبًا آخر للسفر لإنجلترا فرفضه كذلك وقال: تريد أن تنقل الثورة من مصر إلى إنجلترا على حسابنا، وحرت فى الأمر، كيف عرف القنصل هذا، وأخيراً علمنا أنها القائمة السوداء، بل إنى قدمت طلبًا لمدرسة الحقوق الفرنسية فرفض لأسباب منتحلة، وعندئذ أيقنت أن القائمة السوداء تلاحقنى كظلى أينما سرت حتى سنة ١٩٢٠».

«وأحسست أنى تحت مراقبة البوليس، فالمخبر يلاحقنى، والبيت يفتش من آن لآخر، مما سبب لى وللأسرة ضيقا وعنتًا شديداً، وامتد الأمر إلى والدى فنقل إلى الإسكندرية وبقينا نحن بالقاهرة، وقد عرف زملائى هذه القصة، وعدوها بطولة وطنية وظلمًا صارخًا من جانب الحكومة، ولكنهم فى نفس الوقت تحاشوا مقابلتى والاجتماع بى، وهكذا عشت عامين فى قلق مستمر، وضقت ذرعًا بالفراغ».

(١٦)

ووسط كل هذه المشاعر القاسية يستبطن صاحب المذكرات محمد مظهر سعيد ذاته ويستعرض مواقف حياته الماضية، ويرى فيها بارقة الأمل فى نبوءة سعد زغلول باشا له بمستقبل زاهر، لكنه يتعجب من الحال الذى آل إليه هذا المستقبل وهو لايزال فى شبابه، بل إن محمد مظهر سعيد يعترف، فى سرعة بالغة، بأنه حاول الانتحار، وهو لا يولى هذه التجربة الإنسانية بعض ما تستحق من تأمل أو تعمق، وإنما يتجاوزها سريعًا إلى ما بعدها مما مر به فى الحياة:

« . . . وتذكرت أن سعد زغلول عندما كان وزيراً للمعارف زار مدرسة بنى سويف الابتدائية وسألنى فى الفصل بعض الأسئلة ويبدو أنه سر من إجابتى فقال للشيخ حمزة فتح الله كبير مفتشى اللغة العربية المرافق له: « ولد ذكى. . شاطر، وأتنبأ له بمستقبل زاهر»، فهل هذا هو المستقبل الزاهر وأنا الآن شاب عاطل خامل لا حاضر له ولا مستقبل».

. . . .

«وضاقت الدنيا فى وجهى، وما أقسى البطالة والضياع على شاب ذكى متعطش للعلم، ممتلئ نشاطًا وحيوية، لم يجرب الفشل من قبل، وفكرت فى الانتحار وفعلاً ألقيت بنفسى فى النيل، فأنقذونى وأسعفونى وعادت إلىّ الحياة، وعادت معها ثقتى بالله، وبنفسى، وأدركت أن الحياة نعمة لا يكفر بها المؤمن مهما بلغت من السوء».

(١٧)

وفى وسط هذا كله تتاح لمحمد مظهر سعيد فرصة العمل بالتدريس فى إحدى المدارس الثانوية بأسوان، ونفهم من حديثه الخاطف عن تعاقده لهذا العمل أنه كانت هناك بورصة للمعلمين الذين يقومون بالعمل فى المدارس الأهلية، وأن المؤهلات والخبرة لم يكونا لازمين بوضوح لمثل هذا العمل، كما نفهم من حديثه أن تحديد هذا العمل لأمثاله من الذين بدأوا الدراسة فى المعلمين العليا كان ممكنًا باتباع المفاهيم التربوية والحرص على التفرغ لأداء هذه الوظيفة السامية:

«وفى أغسطس ١٩١٧ حدث أن حضر إلى القاهرة الأستاذ كامل سعيد ناظر مدرسة الأقباط الثانوية بأسوان يطلب مدرسًا للرياضيات والعلوم، وكانت قهوة جراسيمو بورصة للمعلمين، فقدمونى له، وارتاح الرجل لى، ورحبت أنا من جانبى بفرصة الابتعاد عن القاهرة إلى أقصى الصعيد، لعل فى ذلك مخرجًا من عنت المراقبة والتفتيش، وهروبًا من القائمة السوداء، وتم الاتفاق وأمضيت العقد لمدة سنتين، وأعددت نفسى للسفر وأرسلت للوالد بالإسكندرية برقية مختصرة: «مسافر لأسوان بوظيفة مدرس ثانوى»، وجاءنى الرد: «كن رجلاً».

. . . .

«. . . ففى العام الدراسى الأول حرصت كل الحرص على أن لا أطرق باب السياسة مع أى إنسان، وانقطعت كلية للتدريس والنشاط الرياضى والثقافى الذى لم تعهده المدرسة من قبل، وكان لهذا أثر كبير فى تقويم الطلاب، وحسن استغلال وقت الفراغ، وما أطوله فى بلد هادئ كأسوان، مما أكسبنى رضا الطلاب وحبهم، وتقدير أولياء أمورهم، ووثق صلتى الطيبة بهم».

. . . .

هكذا بدأت الأقدار تضع هذا الشاب الصغير فى المدينة التى قدر له أن يقود ثورتها عام ١٩١٩.

(١٨)

ونأتى إلى فقرة يروى فيها محمد مظهر سعيد ما لخص له به أحد أصدقائه من رجال الحياة العامة فى أسوان، وهو ممتاز بك، طبيعة رجال الحكومة فى أسوان، وهو التلخيص الذى أثبتت الأيام صدقه، وجعلته بمثابة ضوء هاد أمام صاحب المذكرات فى جهوده البارزة فى الحركة الوطنية، وسرعان ما يردف صاحب المذكرة هذه الفقرة بفقرة أخرى يلخص لنا فيها خبراته الشخصية مع هؤلاء بطريقة موجزة لكنها كافية لإلقاء الضوء على الشخصيات الأبطال فى مسرح الأحداث الذى شهد روايته لقصته مع ثورة ١٩١٩:

«. . . المدير شرابة خرج لا يهمه غير مصلحته، وإرضاء مفتش الداخلية، ووكيل المديرية رجل طيب صالح لكنه فى حاله «ودن من طين، وودن من عجين»، والحكمدار رجل صادق الوطنية وجرىء، والمأمور أديب فيلسوف سارح فى ملكوت الله، والملاحظ زين العابدين شاب نظيف، جميل الخلقة والخلق، ووطنى جداً، أما الضابط الآخر «ك» فهو ثعبان سام مكير لا تأمن له، وهو المكلف بمراقبتك، أما بقية الأعيان والتجار فأنت تعرفهم وهم يحبونك».

«وكان أوين باشا هو ضابط الاتصال بين السلطة البريطانية والحكومة المحلية، وفى نفس الوقت الحاكم العسكرى الفعلى لمديريتى قنا وأسوان ومقره الأقصر، وهو يشرف على تجنيد العمال، وجمع المؤن والدواب، وتأمين المواصلات بين مصر والسودان،

وكل ما يتعلق بالمطالب الحربية. أما المدير «م. ى. ر. بك» فهو كما قال الشاعر القديم: «أسد علىّ وفى الحروب نعامة»، جميل الصورة، مهيب الطلعة، ضخم الجسم، كبير الشوارب، ولكنه جبان، رعديد ومكير كالثعلب فى جلد الأسد، لعب دور المنافق وحنث فى يمين مقدسة، وتفانى فى إرضاء الإنجليز، فكان الثمن فيما بعد رتبة الباشوية ووكالة وزارة الداخلية، ولكن يبدو أنه تاب بعد التقاعد وانضم للهيئة الوفدية بعد أن كان من ألد أعداء الوفد، أما الحكمدار عبده عباسى بك، ووكيل المديرية حسين كامل نصحى بك، والمأمور محمد عزيز دياب فكانوا كما وصفهم لى مختار بك، والملاحظ زين العابدين توفى فى ريعان شبابه، والضابط «ك» رقى فيما بعد مأمورًا لأحد أقسام بوليس القاهرة، ثم مفتشًا للداخلية لأنه اشتط فى تشتيت المظاهرات والقبض على الطلبة والعمال».

(١٩)

ونأتى إلى حلقة مهمة من حلقات ذكريات محمد مظهر سعيد حيث أتيح له أن يعيش فى المسكن فى أسوان مع زميل له عاش من قبل فى كمبردج وأحبها، فظل يستحضر صورتها طيلة حياته معه فى السكن، ومن الطريف أن هذه الخبرة «السلبية»، أو القائمة على التلقى دون الممارسة، ساعدت صاحب المذكرات فيما بعد على التعامل العميق والذكى مع البريطانيين، وعلى تقمص دور مَنْ عاش فى بلادهم وتربى فى تعليمهم، وسنرى فى روايات محمد مظهر سعيد أن هذه الخبرة «السلبية» المبكرة بالحياة البريطانية قد ساعدته فى مستقبل حياته مساعدات ذات شأن عظيم على نحو ما ترينا تطورات الأحداث:

«واستأجرت مع زميلى حسنين فهمى مدرس اللغة الإنجليزية (المشرف الرياضى بجامعة فؤاد الأول) مسكنًا مفروشًا، لكنا بالضرورة (كنا) نقضى معظم الوقت معًا مع اختلاف الميول والمشارب، فكان يتمسك بالتقاليد الإنجليزية، كلامًا، ومأكلاً، ومشربًا، وحركة، وإشارة، إنه تعلم وقتًا بجامعة كمبردج، وكان لا حديث له إلا مدينة كمبردج وجامعاتها وكلياتها ومعالمها وذكرياته عنها، ولا متعة له إلا ألبوم

صورها يتفحصه كل يوم ويشرح لى كل صورة، حتى أصبحت أعرف كل شىء عنها كأنى عشت فيها، ودرست معه، وحفظتها عن ظهر قلب».

(٢٠)

وهذه حلقة ثانية من حلقات ذكريات محمد مظهر سعيد أتاحت له مسرحًا متميزًا لأداء الدور الوطنى رفيع القدر الذى أتيح له أن يقوم به فى هذه الحركة الوطنية، حيث هيأت له الظروف الانتقال إلى سكن جميل كان فى الأصل استراحة خاصة بأحد المليونيرات الألمان الذين كانوا على علاقة بالمخابرات الألمانية، فلما أوشك أمر اتصال هذا المليونير بالمخابرات الألمانية أن ينكشف هرب وترك تلك الفيلا التى أتيح لمحمد مظهر سعيد أن يستأجرها وأن يؤدى من خلال إقامته فيها دوره الوطنى الكبير فى ثورة ١٩١٩:

«كان الهر فريتز فورل ملك اللحوم المقددة فى ألمانيا يملك فيلا ضخمة على النيل بمحطة الجزيِّرة (تصغير جزيرة) التى تقع شمال أسوان، وتبعد عنها بحوالى عشرين دقيقة سيرًا على القدم، لأمر ما سماها «فيلا منيرة»، كانت مؤثثة بأفخر الأثاث، كاملة التجهيزات وجميع وسائل الحياة الأرستقراطية المترفة، وفى الحق كانت أفخم من أى فندق بأسوان، وبها حديقة أزهار وخضر مساحتها أربعة أفدنة، وطاحونة هواء هولندية تمدها بالكهرباء والماء، وحارس وبستانى وحمار وقارب على النيل».

. . . .

«وفى ذات يوم قبيل إعلان الحرب العالمية بأيام حلقت فوق الفيلا طائرة ترفع العلم الألمانى وألقت شيئًا ما فى الحديقة، فالتقطه الخادم وأسرع به إلى سيده، وكانوا يتناولون طعام الغداء وقتئذ، فبادروا بترك المائدة كما هى بما عليها من مأكل ومشرب وحملوا حقائب معدة من قبل وأغلقوا أبواب الفيلا ونوافذها وحملوا المفاتيح معهم ورحلوا دون أى تعليمات للحارس والبستانى، ولعل الطائرة كانت بانتظارهم فى مكان ما، والمهم أنهم كانوا فى عجلة من أمرهم فتركوا كل شىء فى الفيلا على ما هو عليه حتى ثيابهم والطعام والشراب على المائدة».

«واستولت السلطة العسكرية البريطانية على الفيلا وما فيها باعتبارها من أملاك ورعايا الأعداء، وعينوا صديقى اليونانى مدير البنك الأهلى حارسًا قضائيًا عليها، وعلم هذا الصديق برغبتى فى إحضار والدتى لقضاء فصل الشتاء بأسوان لولا صعوبة إيجاد المسكن المناسب، فكتب للحراسة العامة أن أثاث الفيلا الغالى ومحتوياتها الثمينة كادت تتلف بالترك والإهمال طوال هذه السنين، وأنه يوصى بإيجارها لاثنين من المدرسين المهذبين الراقين المتعلمين فى إنجلترا، وهما خير مَنْ يصونها، ووافقت الحراسة على ذلك بإيجار اسمى قدره ثلاثة جنيهات شهريًا، وكانت هذه أجل خدمة قدمها لى نظير رعايتى لابنه فى المدرسة».

. . . .

«وطلبنا إلى مكتبه و سلمنا المفتاح وأمضينا العقد وقائمة المنقولات، وكان كريمًا فتنازل لنا عن الأشياء غير الثابتة كالمفارش والبياضات وأدوات المائدة وآلة كتابة ومحتويات الكرار، وتعهد بدفع مرتبات الحارس والبستانى من حساب الحراسة».

(٢١)

هكذا أتاحت الأقدار هذا المقر المتميز لمحمد مظهر سعيد وصديقه محمد حبيب، وقد قادتهما روحهما الوطنية إلى أداء الدور الذى يؤهل لزعامة وطنية أو لقيادة محلية ذات تأثير، وسارت بهما الأمور من نجاح إلى آخر فى عدد من المجالات الاجتماعية التى خدمت دورهما فى الحركة الوطنية.

ونحن نرى فيما يرويه محمد مظهر سعيد ما يدلنا على أن أجهزة الأمن كانت واعية بمكرها الطبيعى لما يمكن أن ينتوى مثل هذين الشابين قيادته من عمل وطنى أو سرى:

«. . . وتسلمنا الفيلا ودخلناها بعد أن قضى الحارس والبستانى واثنين من فراشى المدرسة يومين فى تنظيفها وغسلها، فوجدنا أثاثها ومفروشاتها فى غاية الفخامة، ووجدنا بالقبو والكرار مخزونًا هائلاً من صناديق النبيذ الألمانى المشهور «فلاهوف»، ومياه «سلتزر» المعدنية، إلى جانب عدد كبير من المعلبات واللحوم المقددة والمحفوظة،

مما يساوى مبلغًا ضخمًا، وأهدينا مدير البنك كمية كبيرة منها، ولم يكن يعلم بوجودها فقبلها شاكرًا».

«واستطعنا بفضل مخلفات «ف. ف» (أى فرتيز فورل) أن نستضيف أصدقاءنا أيام الجمع، والأجانب أيام الآحاد، وكنا نعد الموائد وأدواتها الفاخرة فى داخل الفيلا أو فى الحديقة، ونقدم الطعام والمشروبات، وهم يظنون أنها من عندنا، وكان الأجانب يحضرون يوم الأحد مع أسرهم ويقضون اليوم فى الغناء والرقص وصيد السمك والنزهة النيلية بالقارب، وكنا ندعو الوطنيين لجلسات خاصة بعيدًا عن أعين الرقباء وآذانهم، وكان لطلابنا نصيب كبير من هذه الضيافة، فكانوا يفدون جماعة جماعة فى كل أسبوع فنرتب لهم مسابقات بجوائز، وكان لهذه الدعوات أطيب الأثر فى نفوس الجميع».

....

«وفى يوم أحد فاجأنا المدير ومعه الحكمدار بالزيارة والحديقة حافلة بالضيوف الأجانب، والموائد معدة لتناول الغداء، فرحبنا به وقضى مع الضيوف وقتًا طويلاً واستمتع بغنائهم وموسيقاهم ورقصهم، وشاركهم طعام الغداء، ثم انصرف وهو يقول: «هذه حقيقة جنة.. يابختكم.. ياريت تبادلونى وأدفع لكم الفرق»، ثم تردد وضحك ونظر إلىّ الحكمدار وقال: «وهى كذلك أصلح مكان لتدبير المؤامرات، فضحكت بالمثل وقلت: «صدقت فإخواننا الأروام يتآمرون علينا كل يوم أحد كما ترى»، وضحك الجميع وبدا السرور على وجه الحكمدار من هذا الجواب الدبلوماسى البارع».

(٢٢)

وتأبى الأقدار إلا أن تهيئ لمحمد مظهر سعيد وصديقه محمد حبيب فرصة إثبات ما يدل على ولائهم للبريطانيين لا لأعدائهم، حين سلموا لهم ما وجدوه من أدلة على خطورة الدور الذى كان يقوم به الهر فورل، وقد كانت النتيجة أن حصلا على كتاب شكر وتقدير من السلطات البريطانية، وكان هذا الكتاب فيما بعد بمثابة سلاح من أسلحتهما فى الدفاع عن نفسيهما من الاتهامات التى وجهت لهما نتيجة دورهما فى ثورة ١٩١٩:

«. . . وفى ذات يوم تعطلت طاحونة الهواء، فتسلقها حبيب إلى أعلاها ليرى ما حدث لها، والتفت عرضًا إلى سطح الفيلا فرأى حجرة بيضاء مسحورة لا ترى من الأرض، فتعجب من أمرها، إذ لم يكن بالفيلا أى مدخل لها، أو سلالم تؤدى إليها، فأحضرنا سلمًا طويلاً وصعدنا إليها فوجدنا بابًا صغيرًا أبيض اللون بلون الحائط، وعليه قفل متين، فعالجناه حتى فتحناه، وكم كانت دهشنا حين وجدنا بداخلها جهازًا لاسلكيًا، وكتاب شفرة رمزية «كود»، واتضح بعد حل الشفرة أن «ف. ف» كان جاسوسًا ألمانيًا خطيرًا يتصل ببوتسدام قصر الإمبراطور غليوم رأسًا، وبادرنا بإطلاع مدير البنك على هذا الكشف وسلمناه الجهاز فأرسلهما بدوره إلى السلطة العسكرية البريطانية، فأرسلت لنا كتاب شكر وتقدير كان له أكبر الفائدة فيما بعد».

(٢٣)

ونأتى بعد هذا كله إلى ما يرويه محمد مظهر سعيد عن جوهر دوره الطليعى فى ثورة ١٩١٩ فى مدينة أسوان، ومن الطريف أنه يحرص على أن يروى أن بداية اتصاله بالثورة المصرية كان فى صورة «حادث عارض»!! ومن الجدير بالملاحظة أيضًا أن محمد مظهر سعيد ينفرد بأن يشير إلى ما لم يشر إليه غيره من أن أول سكرتير عام للوفد كان هو المهندس محمد بدر، وأن تكليفهما بدورهما فى الثورة جاء عن طريق هذا السكرتير العام، ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية التى كتب عن ثورة ١٩١٩ لم تثبت لهذا الرجل هذا الدور وإنما نجد فى كتاب الأستاذ مصطفى أمين الكتاب الممنوع ما نفهم منه أن كان سكرتيرًا لسعد زغلول باشا لا للوفد كله، ويروى مظهر سعيد أن معرفة هذا الرجل لهما قد بدأت عندما قدم أسوان لعمل استثمارى ورأى مكانتهما فى هذه المدينة، ولهذا كان من الطبيعى أن يعتمد عليهما فى خطوات ثورة ١٩١٩، وذلك عندما بدأ الوفد بجمع توقيعات المواطنين فى المدن والأقاليم لتأييده وإثبات حقه الشرعى فى التحدث باسم الشعب المصرى من أجل الحصول لمصر على حقها فى الاستقلال:

«. . . وحدث حادث عارض كان القدر قد دبره ليدفعنا دفعًا للخروج من عزلتنا السياسية والقيام بالدور الغريب الخطير فى الثورة المقبلة، ذلك أن المهندس محمد بدر

الذى اختاره سعد زغلول ليكون أول سكرتير عام للوفد المصرى الذى تألف فى أواخر هذه السنة (١٩١٨)، قبل مصطفى النحاس ومكرم عبيد وفؤاد سراج الدين حضر لأسوان لأعمال تتعلق بامتياز حصل عليه للبحث عن الحديد، وكان صديقًا لوالدى، فسأل عنا والتقينا به وأضفناه بالفيلا بضعة أيام، وسألنا عن تفاصيل قصتنا التى حدثه الوالد بها بإيجاز، فشرحنا له كل ما حدث إلى مجيئنا إلى أسوان، وكان وطنيًا ثوريًا مثلنا».

« . . . وأن الوفد بدأ يجمع توقيعات المواطنين فى المدن والأقاليم لتأييده وإثبات حقه الشرعى فى التحدث باسم الشعب المصرى».

(٢٤)

ويروى محمد مظهر سعيد تفصيلات كثيرة عن كيفية اتصالهما (هو وزميله محمد حبيب) بمندوبى سعد زغلول، ونرى فيما يرويه قدرات هائلة للشعب المصرى على التزام الحيطة فى الخطوات الثورية التى كانت ممنوعة بأمر المستعمر البريطانى، ونحن نرى الضابط «ك» الذى كان يراقب الوطنيين والحركات الوطنية قادرًا على أن يتبع مثل هذه التحركات، لكن يقظة محمد مظهر وإخوانه من نشطاء الحركة الوطنية كانت، على نحو ما نرى، كفيلة بإنقاذهم وبإنقاذ خطوات الثورة من مثل هذه العملية:

«وفى يوم ٢٥ نوفمبر أخبرنا الضابط زين العابدين بأن الأوامر صدرت من مستشار الداخلية للمدير بمنع هذه التوقيعات ومصادرة العرائض والقبض على حامليها، وفى يوم ٣٠ نوفمبر جاء مصطفى ماسح الأحذية على عجل وأخبرنا همسًا أن ناظر المحطة ينتظرنا بعد الغروب بقهوة صاوا، وكان منزله خلف المحطة بعيدًا عن العمران، ووجدته بانتظارى أمام المقهى على شاطئ النيل فى مكان هادئ مظلم، ومعه آخر قدمه على أنه الأستاذ زهدى صراف أول السكة الحديد الذى يصل أسوان من القاهرة عدة مرات كل شهر لأعمال مصلحية، وله عربة صالون خاصة لإقامته، وكان معه حافظة أوراق متخمة، وبعد التعارف والتحية أخبرنى أنه موفد من قبل محمد بك بدر سكرتير عام الوفد المصرى ومعه خطاب موجه لنا من سعد باشا ومجموعة قوائم التوكيل، وهو

ينتظر الرد ليسلمه له يدًا بيد بعد أسبوع، وما كاد يمد يده ليفتح المحفظة حتى ظهر «ك» الشيطان من تحت الأرض وضحك ضحكته المعهودة».

. . . .

«. . . وسرنا بدورنا على مهل ودرنا حول المحطة لنرى إذا كان لايزال يتبعنا أو اتجه للصالون ليراقب زهدى، ولما وثقنا أنه انصرف لحال سبيله، دخلنا بيت ناظر المحطة فوجدنا زهدى هناك فسلمنا الأوراق وعاد مسرعًا لصالونه، ونحن بدورنا أخذنا الأوراق، وتركنا الأشياء للناظر لينتفع بها لأنها لم تكن إلا خدعة، وعدنا إلى الفيلا سيرًا على الأقدام بعيدًا عن شاطئ النيل».

(٢٥)

ثم يورد محمد مظهر سعيد نص الخطاب الذى حرره فى اليوم السابق صديقهما محمد بدر سكرتير عام الوفد المصرى(!!)، ولسنا نعرف هل احتفظ محمد مظهر سعيد بالرسالة منذ ذلك الحين أم أنه كان يحفظ نصها عن ظهر قلب، وهو يورد أيضًا نص التوكيل الذى كان عليهما أن يحصلا على توقيعات المواطنين عليه:

«ووجدنا فى الأوراق خطابًا تاريخيًا هامًا هذا نصه:

«سكرتارية الوفد المصرى

٢٩/ ١١/ ١٩١٨

«الأستاذان الفاضلان والوطنيان المخلصان

فلان وفلان

تحية طيبة مخلصة وبعد

«فقد عرضت على سعادة سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصرى ما أعرفه من جهادكما الصادق، ووطنيتكما المخلصة، وتضحيتكما الكبيرة السابقة فى سبيل الوطن، وأنكما خير من يمثل الوفد المصرى فى إقليم أسوان، ويؤتمن على تحقيق رسالته، وتنفيذ تعليماته».

«ويسرنى غاية السرور أن أبلغكما أن سعادة رئيس الوفد قرر اعتمادكما نائبين عن الوفد المصرى فى أسوان والنوبة، فعليكما الاتصال بالوطنيين الصادقين من أعيان وتجار وموظفين، وإطلاعهم على خطاب الاعتماد هذا، والحصول على توقيعاتهم على قوائم التأييد مع اتخاذ الحيطة التامة فى تصرفاتكما بعيداً عن أعين الحكومة، وإعادة القوائم إلينا على جناح السرعة بالوسيلة التى تضمن وصولها إلينا سالمة، وليكن رسولنا الأمين حلقة الاتصال بيننا».

«وإنى إذ أكرر التهنئة لكما نيابة عن الوفد المصرى وسعادة رئيسه أرجو لكما التوفيق فى مهمتكما، والنصر لقضية الوطن العادلة، والسلام».

السكرتير العام للوفد

محمد بدر

«أما قوائم التأييد المطبوعة فقد جاء فى أعلاها هذه العبارة:

«نحن الموقعين على هذا قد أنبنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد الطيف المبكاتى بك ومحمد محمود باشا ولطفى السيد بك أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة، حيثما وجدوا للسعى سبيلا، فى استقلال مصر استقلالاً تامًا».

«ويلى ذلك خانات للاسم والعنوان والإمضاء أو الختم».

(٢٦)

ويروى محمد مظهر سعيد ما يدل على عبقرية فطرية فى الخطوات التى اتخذها لجمع التوكيلات وحفظها، فقد لجأ إلى الاستعانة بفندقى نمساوى الأصل كان من رعايا الأعداء لكنه كان يكرههم، وقد أخلص هذا النمساوى هو وزوجته للحركة الوطنية حتى نجحت عملية تجميع التوكيلات فى أسوان على نحو ما نجحت فى غيرها من البلاد المصرية التى هبت لتأييد سعد زغلول وإخوانه فى ثورة ١٩١٩:

«... وفى اليوم التالى أطلعنا أصدقاءنا الوطنيين على الخطاب، وسلمناهم القوائم تحت مسئوليتهم مع اتخاذ الحيطة والكتمان وحفظ القوائم لديهم فى مكان خفى

مأمون، دفعًا لأى مظنة أو شبهة فى أى مصرى تسلم القوائم فى ظرف أسبوع لمدير فندق «ماجستيك» النمساوى الذى توثقت صلتى به عندما نزلت بفندقه فى أول الأمر، وكان هو وزوجته يكرهان الإنجليز كراهية التحريم، وهو ليس موضع شبهة، وإن كان من رعايا الأعداء، لأنه عاش فى أسوان مدة طويلة وتمصر وليس له أى اتجاه سياسى، واحتاجت السلطة العسكرية البريطانية إليه فى أثناء الحرب، لنزول الضباط بفندقه، وقد أثنوا على خدماته لهم أطيب الثناء، وتوثقت الصلة بعد أن حكيت لهما قصتى، وكان يفرد لنا غرفة خاصة منعزلة نجتمع فيها خفية للتشاور فى الأمور بعيدين عن الرقباء، وينكر وجودنا لمن يسأل عنا من الغرباء، وتجلس زوجته فى مواجهة الباب الكبير، فإذا اشتمت رائحة الخطر قرعت الجرس ثلاث مرات فنتسلل من الباب الخلفى، وأخطرناه بتسلم القوائم من أصحابها، ثم يسلمها لطه كحالة»،

(٢٧)

ويورد محمد مظهر سعيد بعض أسماء زعماء الطوائف الذين تعاونوا معهم فى هذا الإنجاز الوطنى:

«وكنا قد سلمنا حنفى بك منصور قوائم الأعيان، والشيخ أبو بكر كحالة قوائم التجار، والمهندس أحمد شوكت قوائم الموظفين، والأستاذ توفيق رشدى قوائم المدرسين، والمهندس أحمد حسنين قوائم الخزان، والنجار بك قوائم الجزيرة، والشيخ عبد القادر قوائم جزيرة أسوان، وطه كحالة قوائم البلاد الشمالية حتى إسنا لعائلة حزين بك، وتركنا ضباط الجيش والبوليس لظروفهم الخاصة».

(٢٨)

ونأتى إلى قصة المغامرة التى يروى محمد مظهر سعيد أنه قام بها، مستغلا مرضه وإقامته فى المستشفى للتغطية على قيامه بتسليم التوكيلات إلى مندوب الوفد، ونحن نرى طرافة شديدة فى تدبير محمد مظهر سعيد لخطته للقيام بهذا الدور الذى لم يتعد تسلم سلة التوكيلات من طه كحالة وتسليمها لزهدى، مع أن عملية التسليم والتسلم

كانت ستتم فى المكان نفسه، لكننا نقدر ما كان يقدره هؤلاء الوطنيون من ضرورة تأدية مثل هذه الأعمال على الوجه الأكمل من دون ترك أية ثغرة لخطأ غير مقصود:

«وواجهنا المشكلة الخطيرة المعقدة، وهى: كيف نتسلم التوكيلات من طه كحالة ونسلمها لزهدى ونحن الاثنان مراقبان مراقبة شديدة، وخطواتنا محسوبة علينا فعلاً، وجاءت المصادفة الثانية وكانت مصادفة سعيدة حقًا دبرها القدر الرحيم لنجاح المهمة من أيسر طريق، فقبل موعد التسليم بثلاثة أيام أصبت بخراج كبير فى الزور اقتضى عملية جراحية فى المستشفى الأميرى والبقاء به للعلاج أسبوعًا على الأقل مع الاشتباه فى حالة دفتيريا، وأخطرت المدرسة بذلك، وكان الدكتور نسيم يمر علىّ كل صباح للغيار ويقضى معظم وقت فراغه معى، وحبيب يلازمنى بعدئذ من بعد انتهاء دروس المدرسة إلى الغروب، ثم تتولانى المرضة إلى منتصف الليل، كانت المرضة راهبة إيطالية سألتنى عن حالى فى الليلة الأولى فأجبتها بالإيطالية وأخبرتها أن أمى إيطالية، فأخذت تسامرنى وتقرأ لى شعرًا أو رواية إيطالية إلى أن يدركنى النعاس، وتتركنى ساعة واحدة لتناول العشاء والصلاة، ثم تعود، وتردد الإخوان الوطنيون على المستشفى لزيارتى، وكلفت طه كحالة أن يسأل ناظر المحطة عن موعد وصول زهدى وتتم المقابلة بينى وبين زهدى قبيل العشاء فى منزل المحطة، وفى نفس الوقت يكون طه بانتظارى أمام قهوة صاوا لأن زهدى لا يعرفه، ويضع الأوراق فى سلة صغيرة يغطيها بطبقة من الخضار أو الخيار أو الفواكه أو أى شىء آخر كأنه يحملها إلى منزله».

«وكان «ك» يزور المستشفى زيارات مفاجئة متقطعة ويراقب زوارى فى دخولهم وخروجهم، ويفتش ما يحملونه من فاكهة وجرائد بدافع مجرد الاستطلاع كما يدعى، وينتظر حبيب عصرًا ويدخل معه غرفتى ويلازمنا حتى يخرج فيخرج معه ويسير معه قليلاً فى طريق الفيلا فإذا اطمأن لعدم عودته انصرف، وكان يستدرجنى فى الكلام ويقترح أن يصاحبنى فى جولة بالحديقة أو على كورنيش النيل لتغيير الهواء، فأظل نائمًا فى سريرى أتوجع وأظهر الألم عند كل حركة، وجعلت الدكتور نسيم ينصحنى أمامه بأن فى مبارحة السرير خطرًا كبيرًا فقد يفتح الجرح فأحتاج لعملية أخرى، ثم يطلب من المرضة إعطائى دواء مسكنًا أو منومًا».

«وحرت فى أمر هذه المراقبة المتواصلة وشممت رائحة الخيانة، وتوجست شراً من «ك» فطلبت من حبيب أن يضع خطاب سعد باشا والأوراق الأخرى الواردة من محمد بك بدر فى صندوق صغير من الصفيح ويدفنه فى أرض حديقة الفيلا بعيداً عن الرجل فى مكان يعرفه، وقد صدق حدسى فى الخيانة، فقد علمت فيما بعد أن شخصًا ما وشى بوصول خطاب من سعد باشا ومعه قوائم التوكيل، مع أنه حلف اليمين، وكان هذا الشخص أحد صغار الأعيان، وكافأته الحكومة بأن عينته عمدة فى مكان ما ومنحته رتبة الباكوية، وساعدته تجاريًا حتى اغتنى».

«وفى الليلة المعهودة دخلت الراهبة قبيل الغروب فتصنعت الألم الشديد وطلبت منها منومًا قويًا، فأعطتنى ما طلبت وقالت: ستنام فى راحة تامة حتى الصباح، وبعد قليل طلبت كوب ماء لبلع المنوم، وتظاهرت أنى بلعته واستغرقت فى النوم، وكان الظلام قد حل فتركتنى وأغلقت الباب، وما كاد صوت أقدامها يختفى حتى قمت مسرعًا ولبست القميص والبنطلون والحذاء المطاط ونزلت من النافذة، وقفزت من السور الخلفى وجريت مسرعًا، وطفت بشرقى المدينة بعيدًا عن المساكن، ومن فناء المحطة تسلمت السلة من طه وسلمتها لزهدى فى منزل الناظر، فأسرع بها إلى صالونه، وسافر صباح اليوم التالى».

«ولاحظت فى أثناء عودتى لفناء المحطة شبحًا يتلصص بجوار القهوة ويبدو أنه رآنى فاتجه نحوى، فجريت مسرعًا بأقصى ما يمكن ودرت فى الحوارى والأزقة الجانبية متجنبًا شارع الكورنيش، وأسوان كما هو معلوم تنام من المغرب ما عدا رواد المقاهى ونزلاء الفنادق على شاطئ النيل، وعدت إلى غرفتى بالمستشفى، ونمت فى فراشى كأن شيئًا لم يحدث، وعادت الممرضة فى موعدها فرأتنى أغط فى نوم عميق».

(٢٩)

ولا تكتمل طرافة المغامرة التى رواها محمد مظهر سعيد من دون أن نرى الجانب الآخر لها متمثلاً فى التحقيق الذى أجرته السلطات حول ما وصلها من معلومات

بشأنها، ومن الإنصاف أن نشيد بسلوك أولئك الذين يستحق سلوكهم الإشادة به، وفى مقدمتهم الطبيب نسيم الذى كان قادراً على مواجهة الضابط بما يدحض شهادته من أساسها:

«وكان الدكتور نسيم قد قيد اسمى فى سجل المستشفى يوم دخولى، وتاريخ العملية الجراحية، ونوعها، ومدة العلاج، وأرسل الشهادة الطبية للمدرسة، وبعد يومين فوجئت بدخول رئيس النيابة حليم برسوم، ومعه مأمور المركز، والضابط الإنجليزى إياه، و«ك» (وهو الضابط العميل الذى كان متربصًا بمحمد مظهر سعيد وحريصًا على ضبطه متلبسًا بأداء دوره الوطنى)، وكاتب النيابة، وأحضروا لهم منضدة جلسوا إليها، فأعدت تمثيل التأوه والتوجع، وبدأ التحقيق وفتح المحضر، وقبل أن أجيب عن الأسئلة سمعت شخصًا يسعل فى الخارج عرفت من صوته أنه حبيب، وقد تركوه خارجًا فأدركت أن فى الأمر خدعة، وبدأ رئيس النيابة يقول: وردت إشارة عاجلة من جناب مفتش الداخلية باتهامك أنت وزميلك الأستاذ حبيب بأنك أطلعت بعض الأشخاص على خطاب ثورى وارد من القاهرة، وقدمت لهم قوائم لجمع توقيعات بتأييد ما يسمى بالوفد المصرى، مخالفين بذلك أمر وزارة الداخلية، وحصلت فعلاً على هذه القوائم مساء أول أمس وسلمتها لشخص آخر ثم اختفيت، قلت: وما الدليل؟ وأين كان ذلك؟ قال: تقرير البوليس يقول عند قهوة صاوا، والتقرير يقول إن زميلك اعترف ولا داعى للإنكار، قلت: ومَنْ الذى رآنى؟ ولماذا لم يقبض علىّ متلبسًا؟ فاندفع «ك» يقول: أنا رأيتك بعينى هذه، وأردت اللحاق بك، ولكنك جريت أسرع منى وهربت، فوجهت الكلام للضابط الإنجليزى، وقلت: إذا كان زميلى قد اعترف فهو وحده المسئول عن اعترافه، وعلى فرض أن هذا حدث فنحن مصريون ولسنا إنجليزا ولا صنائع إنجليز، فيكون ما فعلنا واجبًا وطنيًا لا يعاقب عليه القانون، أما عنى أنا فاسألوا الدكتور مدير المستشفى والممرضة الراهبة التى تلازم غرفتى».

« وجاء الدكتور نسيم وبعد أن اطلع على التقرير قلب نظره فيهم وقال فى تهكم: ما هذا التخريف؟ الأستاذ مظهر دخل المستشفى منذ أربعة أيام كما هو ثابت فى السجل، وأجريت له عملية جراحية خطيرة تستلزم ملازمة السرير أسبوعًا على الأقل، وقد أخطرنا المدرسة بذلك، وهو لايزال يتألم من الخراج، والممرضة تلازمه من قبل

الغـروب إلى منتـصف الليل وتعطيـه الدواء المسكن والمنوم، وهى راهبـة لا تكذب فاسألوها، ومن المستحيل أن يكون قد فعل ما ذكره التقرير، فقاطعه «ك» بانفعال شديد وقال: ولكنى رأيته بعينى ولكنه طار منى، فأجابه الدكتور ببرود واحتقار: لو حدث ما تتوهمه لمات فى منتصف الطريق من الاختناق، أو من نزيف الجرح، يظهر ياحضرة الضابط أنك مصاب بالهلوسة، أو إدمان المخدرات، ترى وتسمع أشياء وهمية لا وجود لها، وهذا مرض عصبى خطير يجب أن تبادر بعلاجه قبل أن يصل بك إلى مستشفى المجانين».

«وأصر الضابط الإنجليزى على سماع الراهبة، فاستدعوها من الدير، ولما علمت الموضوع انفعلت فى غضب زائد وقالت: دى كلام واحد شيطان مجنون وملعون، فى اليوم دى كان تعبان كتير، وقبل المغرب أخذ منوم شديد، ونام حتى الصبح، وأنا معاه لحد منتصف الليل، فالتفت الضابط الإنجليزى إلى «ك» وقال فى حدة وشرر الغضب يتطاير من عينيه: «أنتو مش بوليس، أنتو حمير، حشاشين، كذابين، ما تنفعوش أبدًا، بكره راح نشوف»، وابتلع «ك» الإهانة صاغرًا وأقفل المحضر بالحفظ وانصرفوا».

(٣٠)

ثم يتحدث محمد مظهر سعيد عن الأثر المعنوى الذى واكب نجاحه فى هذه العملية الفدائية، وبخاصة أن هذه العملية قد كرست مكانته هو وزميله نائبين عن زعيم الأمة سعد زغلول، ونحن نرى ملامح الذكاء الاجتماعى واضحة فى سلوك هذين الوطنيين اللذين دفعا بالموقف خطوات متعاقبة أخرى فى طريق نيابتهما عن زعيم الأمة وقيادتهما للحركة الوطنية فى أسوان، وقد نجحا فى دعوة الأسوانيين إلى دارهم فى زيارة لهؤلاء الأعيان والتجار فى دورهم أيضا:

«. . . وأسدل الستار على هذه التجربة الخطرة الموفقة التى مرت بسلام، ولكننا خرجنا منها بنصر شعبى كبير، فقد عرف الناس ما حدث، وأن القوائم وصلت مصر بطريقة لا يعرفها أحد، وأننا لعبنا بمفتش الداخلية والبوليس، وعرف الجميع أننا نائبان عن زعيم الأمة والوفد المصرى الذى يضم كبار الشخصيات الوطنية، ونحن لابد أن نكون منهم بالطبع، فكنا نتلقى التحيات الحارة، والاحترام الزائد أينما سرنا، وفى

نفس الوقت صرنا أبطالاً فى نظر الطلبة، وبدأ الناس يتساءلون عنا . . مَنْ نكون؟ ولماذا قبلنا العمل بمدرسة حرة بأسوان وهى تعد منفى الموظفين؟ وكيف وصلنا إلى هذه المكانة المرموقة عند الوفد فى القاهرة ونحن هنا؟ لابد أننا مكلفون بمهمة وطنية خطيرة».

«فرأينا الفرصة مناسبة لاستغلال هذه السمعة الطيبة لصالح القضية الوطنية، فتخيرنا عشرين من أشد الأعيان والتجار الأسوانيين غيرة ووطنية، ودعونا إلى وليمة غداء بالفيلا، وحضروا فوجدوا الموائد وأدواتها الفضية والصينية والبللورية، ومفارشها المزخرفة معدة أتم إعداد، وكلها منسقة فى الحديقة أجمل تنسيق، والفضل طبعًا للجاسوس «ف . ف»، وكان الطعام شهيًا من الخرفان التى أهداها النجار بك، والسمك العظيم من مهندسى الخزان، وأصناف البقالة والمعلبات والمشهيات من التجار الأروام، والضيوف لا يعرفون».

. . . .

«وجاء دور السياسة، فحدثناهم حديثًا مستفيضًا عن القضية المصرية من ثورة عرابى للآن، ودور الوفد المصرى فى الدفاع عنها، وواجب كل مصرى وطنى صميم، وكانت معظم المعلومات جديدة عليهم بالطبع، ثم انصرفوا شاكرين حامدين، وقد ازدادت حيرتهم فى أمرنا، لكنهم أصبحوا معنا قلبًا وقالبا».

. . . .

« . . . وقمنا بعدة زيارات للأعيان فى منازلهم، والتجار فى متاجرهم، وأخذنا نبصرهم بالموقف الدولى وقضية مصر والأحداث الجارية، ونروى ما كان يحدثنا به زهدى من أخبار أكثر تفصيلاً من أخبار الصحف، مما أقنع الناس بأن لنا وسائل خاصة جبارة للاطلاع على مجريات الأمور».

(٣١)

ويقترن حديث الثورة فى هذه المذكرات بأحاديث أخرى عن مجريات الحياة العادية والخاصة، فها هو محمد مظهر سعيد يروى دوره فى توزيع خطاب سعد زغلول فى ١٥

يناير ١٩١٩ ، ويعقب هذا بدعوته لوالدته وأشقائه إلى الإقامة معه فى أسوان، ومدى الحفاوة التى لقيتها والدته عندما زارت هذه المدينة :

«يوم ١٥ يناير ١٩١٩ سلمنا زهدى عدة نسخ من الخطب السياسية التى ألقاها سعد زغلول فى منزل حمد الباسل فى يوم ١٣ يناير ، ولم تشر إليها الصحف ، فوزعناها على الأصدقاء ، وأكد لنا أن نذر السحب قد بدأت تتجمع فى سماء القاهرة ، وسوف تؤدى إلى انفجار مروع ، فبادرت وأحضرت والدتى وشقيقتى وأخى الصغير مصطفى لقضاء فصل الشتاء بأسوان بعيداً عن جو القاهرة ، ورأيت أن تنزل بمحطة أسوان بدلاً من محطة الجزيرة القريبة من الفيلا لترى المدينة ، وعند وصول القطار دهش الواقفون على رصيف المحطة عندما رأوا سيدة بيضاء اللون ، ذهبية الشعر ، سافرة الوجه ، أوروبية الملابس ، ومعها فتاة وصبى يشبهانها ، وظنوها سائحة إفرنجية ، ولما رأونى أستقبلها وأقبل يدها وأقبل الصغيرين عرفوا أنها أمى فحيوها مبتسمين بإحناء الرأس ، وردت التحية بأحسن منها ، وسارت بنا عربة الحنطور المكشوفة تخترق شارع النيل على مهل إلى الفيلا ، وعلى مرأى ومسمع من الناس» .

. . . .

« . . . وبعد قليل زارتنا أسرة النجار بك المجاورة ، ثم توالت زيارة سيدات أسوان ، وكانت أمى إذا نزلت أسوان وهى مسافرة فى العربة المكشوفة لرد الزيارات أو للنزهة وقف الناس على طول الطريق يحيونها فى احترام ، وترد عليهم التحية فى ابتسام ووقار» .

(٣٢)

وتمضى الأيام حتى يأتى لمحمد مظهر سعيد التكليف بتنظيم مظاهرة شعبية كبرى فى أسوان ، وذلك عقب اندلاع الثورة فى القاهرة ٩ مارس ١٩١٩ ، ونحن نلاحظ النجاح الرهيب الذى أحرزه صاحب المذكرات فى تنظيم المظاهرة فى ١٥ مارس ١٩١٩ ، أى قبل أن ينقضى أسبوع على قيام ثورة القاهرة التى اندلعت عقب القبض على سعد زغلول وصحبه .

ونحن نرى فيما يرويه محمد مظهر سعيد كل مظاهر الثورة الشعبية الحقيقية، بدءاً من تعاون الفئات المختلفة فى إنجاز متطلبات الثورة، كما نلاحظ فيما يرويه صاحب المذكرات ما يدل بوضوح على قدرات تنظيمية متميزة له ولزميله وللأعيان ومجموع الشعب، ونرى فيما يرويه ما يدل على كثير من الأسباب التى ساعدت على نجاح الثورة من الاقتناع والإخلاص والولاء والفهم والتعاون:

«وحضر زهدى لأسوان يوم ١١ مارس وأخبرنا أن مظاهرات ضخمة اجتاحت القاهرة يوم ٩ مارس احتجاجًا على اعتقال سعد ونفيه، وأن الإضراب العام قد أعلن، ووقعت مصادمات عنيفة دامية مع الجنود البريطانيين المسلحين سقط فيها عدد كبير من الضحايا والشهداء، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وأن مظاهرات أخرى بدأت فى المنيا وأسيوط يوم ١٠ مارس، والبلاد كلها تستعد لثورة عارمة شاملة عما قريب، وأن الوفد يأمرنا بإعداد العدة من الآن لمظاهرة شعبية كبرى، وإسقاط الحكومة المحلية إذا لزم الأمر، وإقامة حكومة وطنية شعارها «الهلال والصليب» من الشخصيات البارزة الوطنية الجريئة، وكان هذا إجراء خطيراً، وخاصة بعد أن أخبرنا ناظر المحطة فى اليوم التالى أن السكة الحديد وجميع المواصلات ووسائل النقل قد تعطلت تمامًا بين القاهرة وقنا».

«واستقر الرأى بعد المناقشة واستطلاع رأى الأعيان والتجار والموظفين الوطنيين على تنفيذ أمر الوفد، وأن تقوم المظاهرة يوم ١٥ مارس، وفوراً تبرع التجار بالقماش والأخشاب والبويات والحبال، وكل ما يلزم لعمل الأعلام واللافتات، وتطوعت مدرسات الجمعيات الخيرية بعمل الأعلام، ومدرسة الصنايع باليفط، وطلبنا أن يكون على الأعلام رمز «الهلال والصليب»، وعلى اللافتات عبارات: تحيا الحرية، يحيا الاستقلال، يحيا الوفد، تحيا مصر حرة مستقلة، يسقط الاحتلال، وأعددنا قادة المظاهرة والمشرفين والخطباء والهتافة، ورسمنا خط سير المظاهرة، وحددنا توقيتها وكل ما يلزم لنجاحها».

(٣٣)

ومن الجدير بالذكر أن محمد مظهر سعيد حرص على أن يقدم صورة شبه كاملة لسيناريو يوم الثورة، وهو سيناريو جميل منظم ومعبر عن رغبة جموع الشعب فى تغيير

الوضع، وعن استعدادهم لتحمل تبعاتهم من أجل هذا التغيير، ونرى فى الوصف الذى يقدمه صاحب المذكرات الأهمية القصوى لعنصر الكلمة متمثلة فى الخطب المختلفة التى تلقى فى الجماهير فى المراحل المختلفة للمظاهرة، وكأن هذه الخطب جرعات متوالية دافعة إلى الحماس وإلى استمرار جذوة الثورة على النحو الكفيل لها بتحقيق أهدافها:

«. . . تبدأ التجمعات الساعة التاسعة صباحًا أمام مدرسة الصنايع فى أقصى شمال المدينة، وتقبل الجموع من طرق متفرقة، وتخترق المظاهرة المدينة من شمالها إلى جنوبها عن طريق شارع النيل، مارة بدير الراهبات، والمستشفى الأميرى، والمدرسة الأميرية الابتدائية، والبنك الأهلى، وسراى المدير، ثم مركز البوليس، وسراى المديرية، والمحكمة، وفندق جراند ومحطة السكة الحديد، ثم تعود من دخل المدينة عبر السوق اليسارية، وتنتهى كما بدأت عند مدرسة الصنايع، أما فندق كتراكت فكان بعيدًا عن خط سيرها، وقد تحاشيناه لوجود عدد من الضباط الإنجليز وأسرهم به».

«وحددنا مواقف الخطابة والخطباء حيث تقف المظاهرة فى بعض الأماكن المهمة لبضع دقائق تلقى فيها الخطب على الجماهير: توفيق رشدى أمام مدرسة الصنايع، والشيخ إبراهيم مدرس اللغة العربية بمدرستنا أمام المدرسة الأميرية، وأنا أمام سراى المديرية، وحبيب أمام المحكمة وفندق جراند، وطه كحالة بالسوق، وأخطرنا ناظر المدارس والناظرات بالخطة لإعداد التلاميذ والطلاب واصطحابهم إلى الأماكن المعدة لهم، واخترنا عدة أشخاص ليكونوا ضباط اتصال، وأرسلنا رسلاً يطمئنون دير الراهبات والبنك والفنادق على حسن سير المظاهرة، وعدم الخوف من أى إخلال بالنظام، وأن تظل المقاهى والمتاجر والفنادق مفتوحة كالمعتاد».

(٣٤)

ونأتى إلى الوصف التفصيلى لما حدث فى يوم المظاهرة من نجاحات، ومن معوقات ومن محاولات ناجحة للقضاء على هذه المعوقات، وقد كانت أبرز هذه المعوقات فيما يتعلق بصاحب المذكرات هى المحاولة المبكرة التى قام بها بعض أعضاء مجلس إدارة مدرسة الأقباط لإجهاض دوره فى المظاهرة بدعوى حماية مصلحة المدرسة نفسها من

عسف الحكومة التى كانت تتولى تقديم الإعانة السنوية لها، ونحن نرى ردود صاحب المذكرات تبين عن إيمان عميق بالثورة وجدواها، والوثوق فى نجاحها وسيطرتها على مستقبل البلاد، ونرى كذلك أن ثقته هذه كانت مبعث النجاح له فى مناقشاته مع المحامى الذى وجه إليه الاتهام، كما نرى جذوة الوطنية الحقيقية فى تعليق المهندس لبيب نسيم الذى تمكن به من أن ينتصر لمستقبل الحركة الوطنية، كما نرى حنكة الناظر وقدرته على فهم ما توحى به عبارات محمد مظهر سعيد من ثقته فى المستقبل:

«وبدأ الاستعداد ليوم المظاهرة التاريخى المشهود على ساق وقدم، واضطرتنى الظروف لترك المدرسة بعد الحصة الأولى لمراقبة العمل بمدرسة الصنايع ومدرسة البنات، وكنت قد شرحت للطلبة خط سير المظاهرة وواجبهم فيها، ورسمت خريطة حددت فيها أماكن الوقوف بعلامات وتركتها دون أن أمحوها، وحضر الناظر للفصل بعدى وسأل الطلاب عنها فأجابوا بأنها تمرين على قياس المسافات والأطوال، وتكتموا الخبر عنه، وعدت ظهراً فدعيت لمكتب الناظر، وهناك وجدت أعضاء مجلس الإدارة للجمعية القبطية التى تملك المدرسة، وهم منقريوس بك رئيس الجمعية، والأستاذ رزق سليمان المحامى، والمهندس لبيب نسيم، والدكتور نسيم داود، وناظر المدرسة، ونجيب أفندى سكرتير المجلس، وقسيس الكنيسة، وشخص آخر لا أعرفه، وبدأ المحامى استجوابى بقوله: لقد وصلت إلى علم المجلس أخبار متواترة عن أمور غريبة ومريبة تقوم بها أنت وزميلك الأستاذ حبيب، وقد كلفنى مجلس الإدارة باستجوابك عنها. أنت تعلم مبدئيًا أن هذه مدرسة حرة تعتمد على إعانة الوزارة وتبرعات الأهلين التى تقبض منها مرتبك، والوزارة تحظر على المدارس وموظفيها الاشتغال بالسياسة، وأنت على نشاط سياسى ملحوظ يضر بسمعة المدرسة لدى الوزارة والأهالى، وقد تقوم الوزارة بقطع إعانة المدرسة وربما إغلاقها، وفوق هذا فقد تخلفت عن الدروس دون إذن من الناظر وطلبت إجازة مرضية إن كنت مريضًا حقًا، فأجبته: لا تنس أننى على العكس أحببت المدرسة، ونفخت فى روحها وجعلتها مدرسة بمعنى الكلمة، وإن كان هناك واجب وطنى أهم من مدرستكم أرى أنه يتعين علىّ القيام به فليس هذا من شأنكم، وأنا مستعد لتقديم استقالتى من الآن، وعلى كل أنتم معذورون، وأقدر موقفكم، ولن أحاسبكم عليه فيما بعد، إن الأهالى معى ما عداكم، ومعى كل مواطن حر يحس فى قرارة نفسه بالدافع الوطنى لخدمة وطنه، وتأييد الوفد المصرى الذى

يطالب بحريتكم واستقلالكم وتخليصكم من عبودية الاحتلال والاستعمار، فإذا كنتم تخرجون على الإجماع، وتتخلفون عن الركب، فهذا شأنكم، والشعب هو الذى سيحاسبكم على موقفكم منه، وتأزم الأمر وتحرج الموقف، وارتبك الأعضاء كأنهم فهموا مرمى كلامى، وخافوا على أنفسهم من غضب الشعب، وتصدى المهندس نسيم لإنقاذ الموقف فقال فى تحمس وشجاعة، مع أنه متخرج فى إنجلترا وزوجته إنجليزية: أرجو أن ينتهى الموضوع عند هذا الحد، فأنا وأنتم وكل المواطنين المخلصين يعلمون تمام العلم أن مظهر وحبيب يقومان بعمل وطنى جليل باعتبارهما نائبين عن الوفد المصرى الذى يدافع عن حقوق البلاد، وهذا شرف عظيم لهما، وتعلمون كذلك كم من الزعماء ضحوا بأنفسهم وقبلوا أن يقبض عليهم، ويزجوا فى السجون، وها هم زعماء مصر الشيوخ العظماء فى المنفى، وسيحدث أكثر من هذا وأكثر، وكله لمصلحة البلد، والأستاذ مظهر جدير بأن نشكره ونقدره ونساعده، وخاصة أنه لم يقصر فى واجباته المدرسية، بل قام بما هو فوق الواجب».

«وتذكر الناظر خريطة السبورة وقال: هل كانت الخريطة خط سير المظاهرة التى أطلعت الطلبة عليه قبل أن تخبرنا؟ فأجبت ببرود: نعم، وأرجو أن تشاركنى أنت وأعضاء المجلس فى خروج المدرسين يوم المظاهرة بنظام، وتقودهم إلى مكانهم المحدد لهم بنظام، ليشتركوا فى المظاهرة مع بقية زملائهم، وإلا خرجوا عليك وذهبوا من تلقاء أنفسهم أو تعتبر المدرسة خارجة عن إجماع الشعب، وهذا واجب كل وطنى، مسيحيًا كان أو مسلمًا، إلا إذا كنتم تفضلون بقاء الاحتلال، وستسمع ياحضرة الناظر دوى المظاهرة عندما تبدأ من الإسكندرية إلى حلفا، وكان منقريوس بك رجلاً حكيمًا محنكًا أدرك مغزى عباراتى فقال فى تؤدة: باركك الرب ووفقك فى خدمة البلد، ولكن أرجوك ألا تعرض المدرسة للارتباك أو الخسارة، وانتهت الجلسة عند هذا الحد، وخرج أعضاء المجلس واجمين، وشكرت المهندس لبيب نسيم على وطنيته الصادقة».

(٣٥)

ولا يفوت محمد مظهر سعيد فى خضم كل هذا أن يشير إلى طبيعة اقتناع الشعب بقيمة الثورة وأهميتها:

«. . . وقد استجاب جميع الناس من وطنيين وأجانب بروح طيبة عالية، لأن الوعى القومى قد تيقظ، وأيقن الشعب أنها معركة ضد الاحتلال والاستعمار، وتملكتهم جميعًا روح الجهاد والتضحية».

(٣٦)

ويصل محمد مظهر سعيد بنا إلى مرحلة التعاهد على الثورة، ووضع ما يمكن وصفه بأنه خطة بديلة لتسلم زمام الحكم المحلى فى مدينة أسوان، وربما كانت هذه الصيغة التى وصل إليها هؤلاء الثوار بمثابة «حجر الزاوية» فى الاتهام الذى وجهته إليهم سلطات الاحتلال ومعاونوها فيما بعد:

«وفى المساء عقدنا اجتماعًا للإخوان العشرين الممثلين لمختلف قطاعات الشعب بمنزل الشيخ مصطفى قديس المتطرف (الوصف للمنزل لا للشيخ) عن البلد، وعرضنا الموضوع كله تفصيلاً، وقلنا إن الدين يأمرنا بالجهاد فى سبيل الله والوطن، ولو أدى الأمر إلى إسقاط الحكومة كطلب الوفد، وبعد مناقشة قصيرة والرد على بعض الاستفسارات اتخذت القرارات الآتية بالإجماع وأقسمنا اليمين على تنفيذها:

١ - تأليف مجلس وطنى من الأعضاء الحاضرين يتولى الحكم المحلى بمديرية أسوان.

٢ - تعيين لجنة تنفيذية عليا رباعية برئاسة الأستاذ مظهر سعيد، وعضوية الأستاذ محمد حبيب أحمد نقيب المرغنية، والشيخ مصطفى قديس ممثل الأعيان والتجار الأسوانيين، وجبالى عبد النبى جبالى ممثل العربان.

٣ - تعيين فرقة من الحرس الوطنى المسلحين المتطوعين لحراسة الفيلا مركز اللجنة التنفيذية العليا، وتلقى الأوامر وتبليغها.

٤ - الاستيلاء على جميع دور الحكومة، وإقالة مدير المديرية، وتعطيل المحكمة واستمرار جميع الموظفين فى أداء أعمالهم وصرف مرتباتهم الشهرية كالمعتاد من الأموال الأميرية حيثما وجدت.

٥ - المحافظة على خزان أسوان والنزلاء بالفنادق.

٦ ـ حلف اليمين على القرآن والإنجيل باحترام هذه القرارات وتنفيذها بكل دقة وأمانة وإخلاص مهما كانت الظروف والنتائج حتى الموت.

٧ ـ إعلان هذه القرارات للشعب أمام سراى المديرية يوم المظاهرة.

٨ ـ إبلاغ هذه القرارات للوفد المصرى بكل وسيلة ممكنة».

«وبعد حلف اليمين وكتابة عدة نسخ من القرارات رأست الجلسة، واخترنا المندوبين لإبلاغ القرارات للمواطنين كل فى منطقته، واقترحت أن يبقى الحكمدار الوطنى المخلص بسراى المديرية مشرفًا على البوليس والإدارة، وأن يتولى الأستاذ حبيب رقابة المواصلات والفنادق، وأحمد حسنين رقابة الخزان، فوافقوا بالإجماع، وقلت إننا فى حاجة للسلاح وخاصة أعضاء اللجنة الرباعية، أما بقية الأعضاء فلديهم سلاحهم، فتبرع كل من المهندس أحمد حسنين، والشيخ عبد القادر بمسدسين، ووصلتنا المسدسات بالفعل ومعها كمية كبيرة من الطلقات».

. . . .

(٣٧)

ونأتى إلى المرحلة التى شهدت تقدير الموقف على الجهة الأخرى، ونحن نرى محمد مظهر سعيد يلجأ إلى الحكمدار وهو المسئول الأول عن قوات الشرطة ويفهم منه أن الشرطة المصرية لن تشارك فى عداء الشعب أو مقاومة ثورته، وأنه أبلغ المدير (وهو ما يناظر منصب المحافظ الآن) بهذا المعنى، وهكذا بدأت المعطيات تتغير لصالح الثورة والحركة الوطنية:

« . . . وكان الحكمدار ينتظرنى بفندق جراند فاختليت به وقلت له: المدير رجل لا يطمأن إليه، أما أنت فالجميع يعرفون صادق وطنيتك، ستقوم صباح الغد المظاهرة الشعبية الكبرى لتأييد الوفد، فماذا يكون موقف البوليس إذا ما رأى المدير أن يفضها بالقوة؟ هل تشتبكون مع الأهالى وأنتم قلة رغم سلاحكم؟ أخشى إن حدث هذا فقد يحصل ما لا تحمد عقباه، ونحن نريد أن ينتهى اليوم بسلام، فابتسم وقال فى هدوء: نحن على علم كامل بكل شىء، وكذلك مفتش الداخلية، وقد اتصل بالمدير اليوم

وأمره بفض المظاهرة بالقوة من نقطة البدء ومكان التجمع، والقبض على الزعماء وخاصة أنتم الأربعة، ولكنى خالفته وأنذرته بالضرر البالغ الذى يحدث حتمًا من تعرض البوليس للشعب المتحمس الثائر، وقلت له: أنا لا أتحمل المسئولية، ولو تحملها هو وأصدر الأمر بنفسه عرض حياته وأسرته لخطر محقق، وأن الذى يفض المظاهرات فى مصر، كما علمنا، ليس البوليس المصرى، وإنما الجيش البريطانى، فإن أراد المفتش أن يفض المظاهرة فليحضر بنفسه على رأس العساكر الإنجليز، وأكد له أن البوليس سيقف على الحياد، ويساعد على حفظ النظام ويحمى المظاهرة من الغوغاء، ولا أظن المدير، وهو رجل جبان كما نعرف، يجرؤ على تغيير رأيه ويصدر الأمر بالمنع، ولو فعل لخالفته وليكن ما يكون، وأقسم بالله على ذلك، وانصرف».

(٣٨)

ومع كل هذه البشائر فإن حذر محمد مظهر سعيد غلبه، ورأى أن يؤمن ظهر المظاهرات بدعم من الجيش المصرى الموجود فى أسوان فى حراسة خزان أسوان (قيادة أورطة الخزان)، وقد كان من حسن حظ الحركة الوطنية أن القومندان كان مرحبًا بالثورة، حانقًا على الحكومة، ومع أنه لم يكن يحبذ الاشتراك فى عمل خارج عن حدوده إلا أنه توصل إلى حل وسط ذكى بأن قام بإجازة وترك للضباط التالين له تسيير الأمور، وهكذا أمكن أن تشارك قوات الجيش المصرى طلائع الحركة الوطنية فى ثورة أسوان، وقد كان مدبرو الثورة من الذكاء بحيث انتبهوا إلى الأهمية البالغة لحماية الخزان، وإلى ضرورة تحركهم قبل الفجر، وإلى أهمية حماية جوانب المظاهرة حتى لا تستغل أو تصور فى اتجاه آخر:

«. . . اتصلت بالضابط على سعد تليفونيًا وذكرت له حديث الحكمدار، وشرحت له الموقف وأبديت تخوفى من تردد المدير، ومن حدوث أى صدام بين البوليس والشعب، رغم تأكيد الحكمدار، وخاصة أن الشعب يكره البوليس بطبعه، وكذلك احتمال اعتداء الغوغاء، وربما بتدبير من المدير، على المتاجر والفنادق وغيرها من المبانى التى يجب المحافظة عليها، فإذا استطاع الجيش أن يساعدنا فإنه يؤدى للوطن خدمة جليلة، فأمهلنى ربع ساعة، طلبنى بعدها وأخبرنى أن قومندان أورطة الخزان

رجل مسالم لا يحب أن يتورط فى أى عمل خارج عن حدوده، ولكنه فى نفس الوقت يرحب بالثورة ويكره الإنجليز ويتضايق كل الضيق من نفيه فى أسوان بعيدًا عن أسرته، وساخط على الحكومة، ولهذا أقام نفسه بإجازة عارضة وترك الأمر لنا».

«واتفقنا أن تنزل قوة كافية لأسوان، مشاة وفرسانًا، بملابس الميدان والسلاح الكامل، ويترك الباقى لحماية الخزان، على أن يتم ذلك فجرًا حتى يكون الجنود فى الأماكن المخصصة لهم قبل الثامنة صباحًا، وتقوم بعض السرايا بالمرابطة أمام المبانى المهمة لحمايتها، والبقية يقفون على جانبى شارع النيل ويرافقون المظاهرة، والمهم حماية منطقة الخزان خوفًا من قيام العمال هناك بمظاهرة غير منظمة قد تنقلب إلى فوضى أو تمتد إلى مستعمرة الخزان وتتهجم على المهندسين والموظفين الإنجليز، ويحسن التنبيه على هؤلاء بأن لا يبارحوا مستعمرتهم الخاصة بهم».

(٣٩)

ولا يقف ذكاء محمد مظهر سعيد وإخوانه من مدبرى ثورة أسوان عند هذا الحد، وإنما يتعداه إلى محاولة من أجل إشراك السلطة القضائية نفسها فى حوادث الثورة، وهو ما مكنهم من الوصول إلى حل وسط يمكن للثورة، ولا يلزم القاضى بما لا يوافق عليه:

«وكلفت حبيب بمقابلة قاضى المحكمة على حيدر حجازى (باشا فيما بعد)، ويتفق معه على أن يفتتح الجلسة كالمعتاد وعندما تصل المظاهرة إلى سراى المحكمة تقف، وتهتف بحياة العدالة والقضاء النزيه وحياة القاضى، ويحضر حبيب ويطلب منه أن يقفل الجلسة باسم الشعب ويسجل ذلك فى المحضر الرسمى، وبعد ذلك يستمر فى نظر القضايا على أن تصدر الأحكام باسم شعب مصر الحرة المستقلة، فوافق على الجزء الأول فقط وفضل إغلاق المحكمة، فوافقه حبيب على ذلك.

(٤٠)

بل إن الثوار نجحوا فى أن يكسبوا حياد بعض الضباط الإنجليز والنزلاء الأجانب فى

فندق كتراكت وأن يضعوا أسسًا كفيلة بتنظيم تعامل هؤلاء مع قيادة الثورة، وأن يثبتوا هذا فى مكاتبات رسمية كانت عونًا لهم فيما بعد على الخلاص من حبل المشنقة :

« . . . ثم توجه إلى فندقى جراند وكتراكت وقابل الضباط الإنجليز والنزلاء الأجانب وشرح لهم بالإنجليزية الغرض من المظاهرة، وطمأنهم على حياتهم وممتلكاتهم، وبما أن المواصلات مقطوعة تمامًا ولا سبيل للانتقال إلى القاهرة أو السودان، فسيبقون ضيوفًا معززين مكرمين إلى أن تنجلى الأمور ، ولهم أن يتريضوا ويتنقلوا خارج الفندق كما يحلو لهم، ولكن بملابس مدنية، وطلب من إدارة الفندق دفترًا جديدًا من دفاترها يدونون فيه كل طلباتهم يوميًا، وسيقوم هو شخصيًا بالاطلاع عليه ويحقق مطالبهم ومقترحاتهم على قدر الإمكان، فشكروه شكرًا جزيلاً، وافتتح كبيرهم الدفتر بكلمة شكر وتقدير أمضوها جميعًا بأسمائهم وألقابهم ورتبهم العسكرية ونجحت المهمة».

(٤١)

ونأتى بعد هذا كله إلى ما لابد من حدوثه فى كل ثورة وفى كل حركة وطنية من تيارات معاكسة، تكشف عن قدرة الثوار الحقيقية إذا ما نجحوا فى مجابهتها بالتصرفات السليمة، وبردود الأفعال المنضبطة.

ومن حسن حظ ثورة ١٩١٩ فى أسوان، حسبما ترويه هذه المذكرات، أن قادتها كانوا على مستوى المسئولية واستطاعوا أن يتصدوا بذكاء وحسم لمحاولة بعض الإنجليز نسف خزان أسوان، وهى عملية بدأوا خطواتها بوضع الديناميت فى عيون الخزان، لكن يقظة المهندس المصرى أحمد حسنين كانت كفيلة بإجهاض مثل هذا المخطط الإنجليزى الذى حاول بعض الإنجليز من خلاله التصدى للثورة :

« . . . وحضر المهندس حسنين وهو بادى القلق والاضطراب وأنبأنا بشىء بالغ الخطورة، وهو أن مهندسى الخزان وموظفيه الإنجليز حملوا السلاح وتحصنوا فى مستعمراتهم ووضعوا كميات ضخمة من الديناميت فى بعض عيون الخزان بنية نسفه إذا بدرت بوادر أى مظاهرة شعبية، أو محاولة لاقتحام المستعمرة، وقد حاول أن

يقنعهم بخطأ مسلكهم ويطمئنهم على أنفسهم فليس هناك أية نية للتحرش بهم، وهناك ضباط إنجليز ينزلون مع أسرهم فى فندق كتراكت بأسوان وهم فى غاية الأمان والسلام، ولكنهم لم يقتنعوا، بل إنهم بدأوا التحرش بالعمال والموظفين المصريين واستفزازهم بالصلف والغطرسة والتهديد، فكلفنا كتيبة الخزان بفرض الحصار على المستعمرة والتنبيه عليهم بعدم مباشرة أعمالهم أو الخروج من دائرة المستعمرة، وستجاب لهم كل مطالبهم وندبر لهم احتياجاتهم وتصرف لهم مرتباتهم، ويتولى المهندسان أحمد حسنين ومحمد عبد الله إدارة شئون الخزان، ولا يسمح لأحد بدخول منطقة الخزان إلا بترخيص خاص من المهندس المصرى المسئول، وتم فوراً نزع الديناميت من عيون الخزان، ولو شاء القدر الغاشم أن يتم تدبير الإنجليز الشيطانى ونسف الخزان أو أى جزء منه لكانت كارثة كبرى على البلاد، وفى الحق أن أحمد حسنين كان بطلاً يستحق تقدير الوطن».

(٤٢)

ويبدو أن روايات التاريخ عن ثورة ١٨٨٢ بقيادة عرابى وما لقيته من الغدر كانت قد رسخت فى وجدان القائمين على ثورة ١٩١٩ فى مدينة أسوان قدراً هائلاً من الحذر فى مواجهة احتمالات الغدر من حيث لا يحتسبون جغرافيًا، فإذا هم ينتبهون إلى أهمية التصدى لمحاولات الهجوم عليهم من هنا أو هناك بإجهاض هذه المحاولات بالسبل المناسبة من التمويه والإنكار وقطع الاتصالات والإمدادات، وذلك على نحو ما نقرأ فيما يرويه صاحب المذكرات:

« . . . وقدرنا أن القوات البريطانية لابد أن تصل يومًا ما إلى أسوان، إما من حلفا بحرًا، أو من القصير برًا، أو من الأقصر إذا فشلت الثورة وأصلحت السكة الحديد، وخشينا أن نفاجأ على غرة، فأمرنا ناظر محطة الأقصر أن يخطرنا فورًا تلغرافيًا بمجرد وصول أى قوة إنجليزية، وكذلك مكتب التلغراف «بعنيبة» فى النوبة، وكذلك قبيلة «البشارية» المنتشرة بين أسوان والسودان عن أى قوة تصل عبر الصحراء، ونبهنا على القائمقام سيد لبيب ضابط الاتصال بمحطة الشلال بقطع الاتصال بالسودان نهائيًا، والرد عند الاستفسار بأن كل شىء هادئ وطبيعى، والبواخر القادمة من حلفا يستقبلها

ويحجزها ويمنعها من العودة، ويخطرنا بأسماء ركابها وعددهم لندبر وسائل نقلهم إلى أسوان، وأماكن الفنادق اللازمة لهم، وسيكون تحت رقابة ضباط الجيش والرقيب العام الأستاذ حبيب، وأقسم الرجل على احترام هذه الأوامر وتنفيذها».

(٤٣)

وعند هذه النقطة يستطرد صاحب المذكرات (متنقلا بنا بعيدًا عن أسوان) إلى رواية ما قصته عليه زوجه من دور المرأة المصرية فى فرض المقاطعة على المحلات الإنجليزية، ومنع المصريين من دخولها، وفى تقوية إضراب الموظفين بمراقبة الذين يخربون الإضراب، وتوبيخهم بتقديم المال والخبز لهم كناية عن ضرورة إشعارهم بما يفرضه الحس الوطنى.

« . . . وقد شرحت لى زوجتى، المربية العربية الجامعية الأولى المرحومة الأستاذة نظلة الحكيم، الدور العظيم الذى قامت به المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ . فالحركة النسوية التى بدأت بزعامة صفية هانم زغلول حرم سعد باشا، وهدى هانم شعراوى زوجة على شعراوى، رأت من أول واجباتها بعد القيام بدورها الفدائى فى المظاهرات أن تساعد على تنفيذ قرار الوفد، فانقسمت المدرسات والطالبات إلى جماعات، وكانت زوجتى يومئذ طالبة بالمعلمات السنية، وتقوم كل جماعة بمحاصرة متجر إنجليزى، مثل «موروم» و«دافيس براين» و«روبرت هيوز» و«لندن هاوس»، ويمنعن كل مصرى من الدخول احترامًا لقرار الوفد، وقد أفلست معظم هذه المحلات أو كادت تفلس نتيجة للمقاطعة، وأكثر من هذا عند إعلان الإضراب العام لموظفى الحكومة كن يرابطن أمام أبواب الوزارات والمصالح الحكومية ومعهن سلال بها خبز وصندوق به قروش، فإذا وقع فى أيديهن موظف متسلل وبخنه وقلن له: إن كان يريد أكلا فهذا هو الخبز، وإن كان يريد فلوسًا فهذه هى القروش، فيخجل الموظف وينصرف».

(٤٤)

ونأتى إلى النتائج المباشرة والحتمية التى لابد أن تعقب كل هذه الأدوار التى قام بها

محمد مظهر سعيد، فقد رتبت سلطات الاحتلال للقبض عليه ومحاكمته، وعقابه بما يرونه من العقاب، ومن الطريف أن صاحب المذكرات يقدم لنا سيناريو جميلاً ومحكمًا لخطة استدعائه وخداعه للقبض عليه، وتصوير الأمر على أنه مدعو لتناول الغداء مع ضيوف عند مدير أسوان، ومن الجدير بالملاحظة أن نتأمل حركة أخيه مصطفى التلقائية أو الفطرية التى عمدت إلى نزع المسدس وتصويبه، وهى حركة عصبية لكن كان لها فيما بعد أثر مفيد:

«... فى ظهر يوم ٢٧ مارس ١٩١٩ كنا نجلس مع الأسرة على مائدة أعدت فى الشرفة الكبيرة السفلى المطلة على الحديقة لتناول طعام الغداء، وكان أخى الأصغر، وهو فى السابعة من عمره، يجلس بحيث يرى باب الحديقة الكبيرة، وكنت أضع مسدسى فى جيب السترة المعلقة فوق أحد الكراسى الخالى، أما حبيب فكان لخوفه من الأسلحة النارية يحتفظ بمسدسه فى درج مكتبه، وفجأة تسلل مصطفى (هو أخوه الأصغر) من مقعده وأخرج مسدسى ووجهه نحو مدخل الحديقة وأطلقه، ومرت الرصاصة بين رأسى أمى وأختى وخدشت أذن أختى خدشًا بسيطًا والحمد لله، وصرخت الوالدة والأخت أسرعت فقبضت على يده وانتزعت منه المسدس وألقت به بعيدًا على أحد الكراسى وسألته فى حدة: ماذا فعلت يا مجنون؟ فقال فى ثبات وحزم شفت ضابط بوليس ينزل من عربة الحنطور ويدخل الجنينة، وأنا أكره ضباط البوليس بتوع المدير».

«وكان ما رآه حقيقة، فقد أقبل الحارس مهرولاً وخلفه ضابط بوليس لا أعرفه يمشى على مهل، فأسرعت لمقابلته، وبعد أن حيا وسلم أخبرنى أن المدير يدعونا لتناول الغداء فى منزله مع ضيوف كبار آخرين، فاعتذرت بأننا على المائدة وقد بدأنا الطعام، فعلاً، والأولى أن يشاركنا هو فيه، ولكنه أصر قائلاً: إن المدير أخر موعد الغداء لحين حضورنا، والجميع ينتظرون بفارغ الصبر، فقبلنا على مضض وركبنا معه، والوالدة تنصحنا بعدم الذهاب، وركبنا معه عربة الحنطور، وعندما وصلنا لسراى المدير وجدنا كوكبة من فرسان البوليس المسلحين أحاطوا بالعربة، وسرنا جميعًا مندفعين إلى سراى المديرية، وسألت الضابط المرافق عن تفسير هذا الإجراء الشاذ، فقال: سوف تعلمون السر فى المديرية».

(٤٥)

ونصل إلى تفصيلات القبض على قادة الثورة وما ترتب على خيانة المدير لهم، وهروبه من مواجهتهم وتصويره لهم، عند الإنجليز، فى صورة المخربين ومغتصبى السلطة:

«. . . ودخلنا مكتب المدير فوجدنا وكيل المديرية واقفًا بجوار المكتب واجمًا مهمومًا، وأمر الضابط بالانصراف والتفت إلينا وهو فى شدة الأسف والأسى وقال: «عملها الرجل، وأنا والله العظيم ثلاثًا حاولت معه كثيراً فلم أفلح، وقد أمرنى بتنفيذ أوامر الإنجليز لأنه لا يجرؤ على مواجهتكم بعد أن أقسم اليمين. . . فقلت فى دهشة: إنجليز، أى إنجليز، إنهم سافروا جميعًا إلى السودان مسرورين شاكرين، قال: ألم يخبركم سيد لبيب؟ لقد وصلت باخرة مسلحة للشلال فى الفجر وفيها البريجادير جريج ـ السير جريج حاكم أوغندة فيما بعد، على رأس كتيبة إنجليزية، وكتيبة هندية على رأسها قائمقام هندى، وكتيبة سودانية على رأسها القائمقام شاهين، السفاح قاتل الطلبة والنساء والأطفال فى مظاهرات القاهرة فيما بعد، والكتائب كاملة السلاح ببنادقها ومدافعها كأنها قادمة للحرب، وداهمونا فى الصباح الباكر وطلبوا المدير على عجل، فاعترف لهم رغم اليمين التى أقسمها أنكم أشعلتم نيران الثورة بأمر سعد باشا والوفد المصرى، وهوّل لهم فى الأمر وقدم تقريراً رسم فيه صورة بشعة لأعمال التخريب التى قمتم بها، وكيف اغتصبتم منه السلطة بواسطة الجيش ليبرر تخاذله وإفلات الزمام من يده، فأمر البريجادير بالقبض عليكم فوراً أنتم الأربعة أولاً وتسليمكم له أسرى لمحاكمتكم أمام مجلس عسكرى برئاسته، وهم معسكرون الآن حول المحطة، ونحن بانتظار بقيتكم».

(٤٦)

ويقدم محمد مظهر سعيد تفصيلات أخرى عن طريقة معاملة القوات الإنجليزية لهم، وما فعلت به من انعدام الإنسانية والتهذيب:

«. . . وبعد قليل وصل الشيخ مصطفى وجبالى عبد النبى مقبوضًا عليهما، وحضر

ضابط إنجليزى معه سرية مسلحة فى لمح البصر وضع فى أيدينا القيود الحديدية (الكلبشات)، فقلت له بالإنجليزية محتداً: ما هذه المعاملة الوحشية؟ هل نحن مجرمون قتلة أو وحوش مفترسة؟ فارتج عليه ونظر إلينا فى دهشة كأنه لا يصدق أننا متعلمون نتقن الإنجليزية، وقال: أنا آسف أشد الأسف، ولكن هذه أوامر عسكرية، والأوامر هى الأوامر كما تعلمون».

«. . . وهناك فى المحطة أدخلونا غرفة خالية من كل شىء غير الباب ونافذة بها قضبان حديدية ومصاريعها مقفلة، وأقفلوا الباب، ونظر بعضنا إلى بعض ولم نجد ما نقوله، وأخذ كل منا يفكر فى صمت بما تمخضت عنه الأحداث المفاجئة، وجلست على إفريز النافذة وجلس الباقون على الأرض».

(٤٧)

وفى وسط هذه المعاناة والغدر يأتى صوت الحكمدار الذى يحاول صادقًا أن ينقذ ما يمكن إنقاذه وأن يرشد هؤلاء الوطنيين إلى بعض ما يخفف به عنهم أدلة الاتهام فيما هم مقبلون عليه على يد سلطات الاحتلال، ويبدو ذكاء محمد مظهر سعيد فى قدرته على اتخاذ القرار المناسب فى مثل هذه الظروف:

«. . . . وفجأة سمعت نقرًا على الخشب خلف النافذة وصوتًا هامسًا يقول: يا مظهر، يا مظهر، أنت سامعنى، فقلت: نعم أنت الحكمدار، واستمر الهمس: مفيش وقت نضيعه، أنا رايح الفيلا حالاً، فين الأوراق والسلاح، وسمعه حبيب فاقترب منى وأشار بالنفى محذرًا من الخديعة، وجال فى خاطرى بسرعة البرق أنهم سيفتشون الفيلا حتمًا وسيجدون الأوراق والسلاح فلا يتغير الأمر إن كان الحكمدار يخدعنا وهو ما لا أصدقه بحال، وإن كان صادقًا، ومن المؤكد أنه صادق، فخير، فقلت: مسدسى رميته على كرسى فى الشرفة السفلى، ومسدس حبيب فى درج مكتبه، والأوراق فى محفظة سوداء تحت الوسادة فى سريرى، فاسأل والدتى ولأجل أن تصدق أنك رسولى قل لها: بأمارة «الله يحرسك يا ابنى يا مسخر»، وهو دعاء جدتى التركية لى بالخير ولا يعرفه أحد سوى والدتى، وانقطع الهمس وسمعت صوت وقع حوافر الجواد يخف تدريجيًا حتى انقطع».

ويروى محمد مظهر سعيد ما يذكره من تفصيلات المحكمة الصورية التى عقدت على عجل فى صالونات من صالونات القطار، وكانت أحكامها فيما يبدو جاهزة لا تنتظر أقوالاً ولا تحقيقًا ولا دفاعًا ولا شهودًا، وقد انتهت المحكمة إلى إيداعهم المعتقل حتى يبلغ لهم الحكم بعد أن يصدق عليه:

«. . . وأيقظونا فى الصباح الباكر، وقمنا للصلاة بعد أن تيممنا لعدم وجود الماء الكافى، ودعانا الجنود السودانيون لطعام الفطور وقدموا لنا خبزًا وشطة فاكتفيت بالخبز، وبعد قليل حضر ضابط إنجليزى وساقنا تحت الحراسة إلى أحد صالونات الدرجة الأولى بالقطار، ومثلنا أمام مجلس عسكرى يتوسطه البريجادير جريج، وعن يمينه ويساره قائمام إنجليزى وآخر هندى وشاهين المصرى وضابط سودانى ومترجم سورى، فبدأ الرئيس يسألنا بالإنجليزية والمترجم يترجم بلغته الركيكة، فتذكرت حسنين فهمى ودعوت له بالخير، وقلت: يا سعادة الجنرال الرئيس، نحن الأربعة نعرف الإنجليزية، وأنا وزميلى هذا «كانتاب» فنرجو أن توجه لنا الأسئلة مباشرة ونحن نجيبك رأسًا، فبهت الرئيس ودقق النظر فينا، وقبل أن يوجه إلينا الكلام تدخل الضابط الهندى وقال فى سخرية: تعلمت فى إنجلترا صاحبة الفضل عليكم وتثورون عليها، أسكته الرئيس وسألنا عن الاسم والسن والمهنة ومحل الإقامة وقال: إذن أنتم تفهمون معنى الثورة على الحكومة، والخروج على النظام، و. . . . ، فقاطعه الضابط الهندى وقال: لا ضرورة لإضاعة الوقت ونحن على عجل، والتقرير شامل لكل الوقائع والأدلة ثابتة ومعززة من الجهات الرسمية، وتداول الرئيس همسًا مع بقية الأعضاء فوافقوا، ورفع الرئيس الجلسة قائلاً: إذن يرسلون إلى المعتقل، ويبقون هناك معتقلين سياسيين إلى أن يبلغ إليهم الحكم بعد التصديق عليه من القيادة العليا، وهكذا عقد المجلس العسكرى وانفض بعد خمس دقائق، بت فيها فى مصير أربعة من المواطنين الأحرار دون سماع أقوال أو دفاع أو شهادة شهود».

«وعدنا إلى عربة من عربات الدرجة الثالثة فى حراسة السودانيين، وأحسسنا بالقطار يتحرك فى غير موعده، والنوافذ مقفلة فلم ندر إلى أين يتجه».

(٤٩)

ويورد محمد مظهر سعيد بعض ما يذكره عن المعتقل الذى أودع فيه هو وزملاؤه فى الأقصر، ويشير إلى مدى ما كان فى هذا المعتقل من تعسف فى المعاملة، وهو يروى وحشية ضابط السجن النوبتجى حين وجد يديه غير مقيدتين نظراً لنحافتهما فوضعهما معًا فى حلقة واحدة من حلقات القيد الحديدى :

« . . . وتحرك القطار شمالاً وأخيراً وصلنا الأقصر فسلمنا السودانيون إلى سرية إنجليزية مسلحة دفعت بنا فى عربة مقفلة إلى المعتقل».

«وكل ما أذكره عن هذا المعتقل أنه بيت كبير قديم من طابق واحد يبدو أنه كان لأحد الأعيان أو رعايا الأعداء، يقع أمام ميدان صغير».

. . . .

«وطلبنا من أحد ضباط النوبة الاتصال بذوينا للحصول على ملابس بدلاً من ثيابنا التى بليت، فقال: إن الاتصال بالخارج ممنوع بتاتًا، وكنت إذا جن الليل وأطفئت الأنوار أنتزع القيود من يدى بسهولة نظراً لصغرها ونحافتها، وفى ذات ليلة استغرقت فى النوم ولم أشعر بضابط النوبة إلا وهو على رأسى، ولما رأى يدى خاليتين من القيود نظر إلىّ طويلاً وهرش رأسه وفكر وتفتق ذهنه عن حيلة جهنمية وحشية، وهى أنه أدخل إحدى الحلقتين فى الأخرى وأدخل يدى فيهما بالقوة فتسلخ الجلد وصرخت من شدة الألم، ولكنه لم يبال وبدا عليه السرور من نجاح حيلته».

(٥٠)

ويصل بنا صاحب هذه المذكرات إلى اليوم الذى شهد انفراج معاملة السلطات البريطانية لهم حيث زارهم الجنرال أوين باشا نفسه فى السجن، وأظهر تعجبه من المعاملة القاسية التى يلقونها بلا مبرر، وذكر لهم أن برنارد باشا حرص على أن يسجل لهم الشكر على مسلكهم معه ومع الضباط الإنجليز وأسرهم، وقد حرص هذا الباشا على أن يلفت نظرهم إلى حسن معاملة السلطة البريطانية لمعتقليها، وإلى التزام بريطانيا بالعدالة.

ويروى محمد مظهر سعيد أن المعاملة بعد هذه الزيارة قد تغيرت تمامًا، وأن البكباشى قدم لهم كل ما يمكن تقديمه من تسهيلات غذائية فى هذا السجن، وكذلك فعل الطباخ، بل إنه حرضهم على طلب كل ما يشاءون، ومن الطريف أن محمد مظهر سعيد يحرص فى نهاية هذا الحديث على أن يعبر عن سعادته البالغة بهذا التغيير الكبير الذى حدث فى حياتهم، وهو شعور طبيعى لمن كان فى مثل وضعه معانيًا من عذابات السجن، منتقلاً إلى وضع آخر يكفل راحة الإنسان ونظافته:

«. . . وقبيل ظهر اليوم التالى سمعنا من الخارج جلبة جنود تصطف وكركون سلاح، ثم فتح الباب بقوة ودخل ضابط إنجليزى وقور فارع الطول، ممتلئ الجسم، مهيب الطلعة، أدركنا أنه أوين باشا، وخلفه البكباشى الإنجليزى وضابط النوبة والحرس مشرعى السلاح على الوضع القديم تمامًا، ولعل البكباشى الجامعى قصد هذا ليثير الباشا، ووقف الباشا فى وسط الغرفة وتطلع إلينا وإلى الحجرة والحرس وقيود يدينا وملابسنا الرثة والشعور والذقون الطويلة التى لم تقص منذ الاعتقال، وهاله منظرنا الكئيب، وبدا على وجهه الامتعاض، وأعاد النظر إلى الضباط وقال فى تهكم وتأنيب: لماذا كل هذه المظاهرة العسكرية؟ ألا ترون أنهم عزل من السلاح؟ إنهم معتقلون سياسيون ومواطنون محترمون وليسوا مجرمين عاديين، ووجه إلينا الكلام فى صوت رقيق وقال: أنا شديد الأسف لهذه المعاملة غير الإنسانية، ولابد أن هناك خطأ ما، وأرجو أن تفهموا الوضع على حقيقته، فلا تلوموا الضباط الإنجليز، وأؤكد لكم أن هذه تعليمات مديركم ممثل حكومتكم المصرية الذى شوه سمعتكم، والسلطة العسكرية البريطانية ليست مسئولة عن هذا ولا ترضى به، ولكن مع هذا يظهر أننا أخطأنا فى التنفيذ وصدقنا أكاذيب الإدارة المصرية، ولم نتعرف على شخصياتكم وأنتم مواطنون محترمون مثقفون، وقد أعطانى برنارد باشا فى خطابه لى صوراً صحيحة عنكم، وهو يشكركم أجل شكر على مسلككم معه ومع الضباط الإنجليز وأسرهم، ولا أقل من مقابلة الجميل بمثله، وعلى كل سيتغير الوضع توًا على نحو ترضون عنه كل الرضا، وبدأ يعطى تعليماته للضابط مدير المعتقل، وقال: اشكروا السلطة العسكرية البريطانية، وعدالة بريطانيا العظمى التى تعلمتم فى جامعاتها وعرفتم فيها طباعنا وأخلاقنا، وحيانا ثم خرج».

«وما مضت ساعة حتى دخل البكباشى يتبعه عدد من الجنود يحملون أشياء كثيرة، وبدأ يفك القيود من أيدينا، وأخذ الجنود ينقلون «العنجريبات» وينصبون أسرة سفرية من أسرة الضباط بكافة مستلزماتها من حشايا، ووسائد، وبطانيات، وملاءات، وعلى كل سرير صابونة ومناشف، ثم خمسة كراسى مريحة، ومنضدة متوسطة الحجم، وأخرى صغيرة عليها أباريق مياه الشرب وكوبات، وقال: لقد عينا لكم طباخًا مصريًا فاطلبوا منه كل ما تريدون من طعام، وما يلزمكم من أشياء أخرى فى حدود المبلغ المخصص لكل منكم وهو جنيه ونصف يوميًا، وسيكون فى خدمتكم من الصباح المبكر إلى التاسعة مساء، وسيكون لكل منكم تعيين من السجاير والسيجار، وهذه هى الدفعة الأولى، وأعطونى عناوين أهليكم بأسوان لنتصل بهم لطلب طقم واحد من الملابس يغير أسبوعيًا، واطلبوا ما تشاءون من القهوة والشاى والطباخ تحت أمركم، وها هى مجموعة طيبة من الجرائد والمجلات والروايات الإنجليزية، أما الجرائد والمجلات المصرية فليس لدينا منها شىء، وهى ممنوعة بطبيعة الحال، ورجائى أن لا تحاولوا الاتصال بالخارج بأى وسيلة، أتريدون شيئًا آخر؟ أغلب الظن أن المدرس لا يستغنى عن الأقلام والأوراق والكتابة، فقلت: أصبت ياسيدى، فأنا أحب دائمًا أن أدون خواطرى ومذكراتى، ونحن عاجزون عن شكرك، فنشكرك بكل قلوبنا قبل ألسنتنا، فأجاب: بل الشكر لأوين باشا والسلطة العسكرية البريطانية، وحيا وخرج».

«ودخل على أثره الطباخ وقال: ماذا تريدون لغداء اليوم والعشاء وفطور بكرة، اطلبوا ما تشاءون فهم سيدفعون كل النفقات مهما بلغت حتى ولو طلبتم ديكًا روميًا كل يوم، وأعطيناه التعليمات بخصوص أكلنا وأكل جبالى عبد النبى ومواعيد القهوة والشاى، وحضر بعده الحلاق وأتم مهمته فى صمت، ويظهر أنه نبه عليه بذلك، وكان البكباشى قد رخص لنا باستعمال دورة مياه وحمامات الضباط، فهرعنا إليها نقضى الضرورة ونزيل أوساخ الأسابيع الماضية الطويلة، ولا أستطيع أن أعبر عن سعادتى بهذا الانتقال المفاجئ، وخاصة بعد الاستحمام وتناول الغداء الشهى والقهوة والاستلقاء على السرير، وقضينا يومًا سعيدًا وليلة هادئة هانئة، نمت فيها نومًا مريحًا تتخلله الأحلام الطيبة».

(٥١)

ويمضى محمد مظهر سعيد فى تصويره للمعاملة الحسنة التى بدا الجنرال أوين باشا حريصًا على أن يحيطهم بها حتى إنه أمر بنقلهم إلى فندق ونتر بالاس وبتخصيص حجرة مفردة لكل واحد منهم، وقد بدت التعليمات بإكرامهم واضحة حين ألقاها الجاويش على جنود الحراسة بعد أن أطلق واحد منهم النار من مسدسه كرد فعل لسقوط إحدى الصفائح من يد حبيب فيما ظنه الجندى مؤامرة لقتله، ويشير محمد مظهر سعيد إلى توثق علاقاتهم بالضابط والجنود.

. . . .

ويروى محمد مظهر سعيد قصة لقائهم بمعتقلين آخرين كان منهم شقيق الدكتور طه حسين:

«وذات صباح دخل علينا أوين باشا بدون المظاهرة العسكرية وعلى فمه ابتسامة عريضة مشرقة وقال مبتهجًا: إظهارًا لشعورى نحوكم وأسفى على سوء معاملتكم فيما مضى أمرت بنقلكم إلى جناح خاص بفندق ونتر بالاس حيث تتوافر لكم كل وسائل الراحة وتنسيكم ما فات.

«ولم نصدق آذاننا وألجمتنا الفرحة عن الشكر فلم نكن أبدًا نتوقع مثل هذا التغيير، بل لم نكن نحلم به، فندق ونتر بالاس الذى ينزل فيه الأمراء والعظماء وأصحاب الملايين مرة واحدة، ونقلنا فعلاً إلى الطابق الثانى بالفندق المطل على الحديقة الغناء، وخصصوا لكل منا غرفة مفردة كاملة الأثاث الفخم من غرف النزلاء، وتركوا باب الغرفة والنافذة المطلة على الحديقة مفتوحين، ولكنهم وضعوا حرسًا مسلحًا فى الطرقة المواجهة للأبواب، وحرسًا آخر فى الحديقة تحت النوافذ».

. . . .

«وحدث أثناء الانتقال حادث كاد يؤدى إلى كارثة لولا لطف الله، فأثناء صعودنا السلم كان كل جندى يحمل كيسًا كبيرًا فيه أغراضه وصفيحة بسكويت كبيرة، وبقيت واحدة، وكنت أنا أحمل ربطة كبيرة فيها الكتب والمجلات والأوراق فأمر الجاويش حبيب أن يحمل الصفيحة الباقية، وعندما وصلنا إلى أعلى السلم كان حبيب قد تعب

من حمل الصفيحة الثقيلة فأفلتت من يده إلى أسفل السلم، ووقعت بجوار الجاويش وأحدثت دويًا هائلاً، ولعل الجاويش ظن أنها ألقيت عمدا لقتله فأطلق رصاصة من مسدسه فى اتجاه حبيب ولم تصبه والحمد لله، وعلى دوى الصفيحة والرصاصة حضر الضابط صاحب النوبة مسرعًا، وسأل الجاويش عن الخبر، ولما علم أنه أمر حبيب بحملها، جمع الجنود فى الطرقة وقال فى لهجة حازمة: اعلموا أن هؤلاء السادة ليسوا حمالين ولا خدمًا، إنما هم معتقلون سياسيون عليكم أن تعاملوهم بكل أدب واحترام، والتفت إلينا وقال: هذه تعليماتكم: يرخص لكم بالخروج من الغرف ساعة فى الصباح لدورات المياه، وتناول الإفطار معًا فى صالة الطعام، وتناول القهوة فى الصالون الصغير، وساعة لتناول الغداء ظهرًا، وساعة للشاى عصرًا، وساعة فى المساء للعشاء، وفيما عدا هذه الأوقات تبقون فى غرفكم لا تبرحونها إلا لقضاء الضرورة مع أحد الحراس، وممنوع قطعًا الحديث مع الجنود والاتصال بالخارج، وإذا أردتم شيئًا فاطلبوا مقابلة ضابط النوبة، وستطفأ الأنوار فى العاشرة مساء، والآن هيا إلى الحمامات وتناول الغداء، فشكرته وقدمت له صندوق سجاير فتقبله شاكرًا لهذه الهدية الثمينة، وبعد انصرافه أعطينا كل جندى علبة سجاير، وكان هذا بدء توثيق صلتنا بهم».

. . . .

«وبعد يومين جاءوا بأربعة معتقلين آخرين قابلناهم ساعة الغداء، وعرفنا منهم: الأستاذ حسين فهمى المحامى بالأقصر، والشيخ موسى الأقصرى الشاعر، والشيخ عبد المعطى الحجاجى كبير آل سيدى الحجاجى بالأقصر، والرابع أبيض الوجه ذو لحية مدببة (أمبريال)، وكان صموتًا كتومًا يجلس بعيدًا مطرقًا يسمع حديثنا ولا يشارك فيه، وينصرف توًا إلى غرفته قبل انتهاء الساعة المرخص بها، وحاولنا أن نستدرجه فى الحديث فلم نفلح وحسبناه جاسوسًا أو أسيرًا ألمانيًا، واتضح فيما بعد أنه الأستاذ عبد المجيد حسين شقيق الدكتور طه حسين، وقد اعتقلوه فى كوم أمبو».

(٥٢)

ونأتى إلى أقسى اللحظات العصيبة فى حياة محمد مظهر سعيد وإخوانه حين واجهوا الحقيقة المرة وهى أنهم قد حكم عليهم بالإعدام.

ونرى من تصوير محمد مظهر سعيد مدى ما اعتراهم من صدمة أودت بحياة واحد من هؤلاء الأربعة حين أدرك من مقدمات حديث الجنرال أوين أن حكم الإعدام قد صدر عليهم :

« . . . فى حوالى التاسعة والنصف من صباح يوم ١٣ يونية ١٩١٩ حضر الضابط السودانى واستدعانا نحن الأربعة دون سائر المعتقلين إلى المكتب ، وهناك وجدنا أوين باشا بملابسه العسكرية ونياشينه ، وكان متجهمًا على غير عادته ، ومعه ضابطان إنجليزيان آخران وحولهم حرس مسلح ، وبدأ يتلو أسماءنا واحدًا واحدًا بصوت تبدو فيه شدة التأثر ، فأحسسنا فى الجو خبرًا مفزعًا رهيبًا ، وقال : لقد كلفت بمهمة شاقة على نفسى ، ويؤسفنى أن أبلغكم أن المجلس العسكرى كان قد أصدر حكمه فى قضيتكم من مدة وأمرنى بتنفيذ الحكم فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم ، وقد أخفيت الحكم عنكم طوال هذه المدة حتى لا أنغص عليكم حياتكم قبل موعد التنفيذ ، ولهذا السبب نقلتكم من المعتقل إلى فندق ونتر بالاس وحرصت على راحتكم وإجابة مطالبكم بقدر ما تسمح به الأوامر ، بل إنى تخطيت هذه الأوامر فى بعض الأحيان تحت مسئوليتى إلى أن أمرت القيادة بنقلكم إلى هذا المعتقل ، فهل تطلبون شيئًا خاصًا أو تكتبون لأهلكم فى أسوان؟ وفجأة صرخ جبالى عبد النبى ونفث دمًا غزيرًا من صدره ووقع على الأرض وقال : تنفيذ حكم . . ورغبة أخيرة . . ورسالة . . هذا إعدام ياولاد . . إعدام . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . . وصيتك بنتى فاطمة يا مظهر ، هناك فى الفيوم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وراح فى غيبوبة ، وحضر الجنود فورًا بمحفة ونقلوه إلى المستشفى العسكرى ، وتوفى بعدئذ مجاهدًا شهيدًا » .

(٥٣)

ثم يقدم محمد مظهر سعيد وصفًا دقيقًا للساعات التى سبقت تنفيذ حكم الإعدام فيه وفى زملائه ، ونرى فى هذا الوصف الدقيق انطباعاته الذكية تجاه التقاليد العسكرية البريطانية فى مثل هذه الأحوال ، وهو يصف هذه التقاليد بالنفاق ، كما أنه يصف حالته النفسية والبدنية بدقة شديدة ، ويصور بدقة شديدة أيضًا تفصيلات الذهول الذى اعتراه ، والهروب الذى لجأ إليه عقله ، كما يصور عودته إلى أرض الحقيقة على نحو

دقيق، والواقع أن هذا الوصف نادر الوجود لأن القصة التى حدثت لمظهر سعيد وإخوانه كانت ولاتزال نادرة الحدوث أيضًا.

ونحن نرى فى الحكم العسكرى الذى أصدرته المحكمة العسكرية البريطانية تجاوزًا فى توصيف التهم وتضخيمًا لها دون أن تعنى هذه المحكمة بتقدير الشعور الوطنى وما يترتب عليه، وهذا أمر طبيعى.

وفى وسط كل هذا يتضح لنا السبب فيما كان الجنرال أوين باشا حريصًا عليه من إحسان معاملة هؤلاء الذين كان يعرف أنهم قد تم الحكم عليهم بالإعدام، وأن تاريخ تنفيذ الحكم قد حُدد بالفعل فى الحكم الصادر عليهم:

«وخرج الضباط وساروا إلى باب المعتقل، ونحن وراءهم نسير بدون وعى كالإنسان الآلى، ووجدنا على طول الشارع موكبًا عسكريًا فى مقدمته جوقة عسكرية موسيقية إنجليزية، يليها أربعة بغال يحمل كل منها مدفع ميدان صغير، ويحرسها الجنود الهنود، ثم كتيبة إنجليزية تليها كتيبة سودانية، وبنادق الجميع منكسة، ووضعونا وسط الموكب، وبدأت المسيرة والموسيقى تعزف لحنًا جنائزيًا «مارش الموت»، والجنود يسيرون بنصف خطوة، ويبدو أن الخبر انتشر فى المدينة، فقد وقف الرجال فى جانبى الشارع على طول الطريق، وبعضهم يقرأ الفاتحة ويرفع يديه بالدعاء، وبعضهم يهمس بعبارات: «إنا لله وإنا إليه راجعون. . الله معكم يا أبطال يا أحرار. . الله المنجى. . أحياء عند ربهم يرزقون»، ومن ورائهم النساء بثيابهن السوداء والزرقاء تتساقط دموعهن ويكتمن زفراتهن».

«وسار الموكب مخترقًا شوارع الأقصر من المعتقل إلى المحطة ثم فندق ونتر بالاس، وكنت طول المسير فى حالة ذهول وقف فيها التفكير، وتخيلت أن جسمى سقط على الأرض، ورأسى تضخم كالبالون، وارتفع فوق رءوس الناس، وأخذت ألقى على الجماهير المحتشدة خطبة ثورية بصوت كالرعد».

. . . .

«وعدت فجأة من سبحتى فى عالم التهيؤات إلى دنيا الحقيقة المرة، والواقع المؤلم، على أثر شعورى بحركة وقوف ونداءات عسكرية، وقعقعة سلاح، وعزف الموسيقى

العسكرية بالسلام الملكى البريطانى، وتلفت حولى (فوجدت أننا) فى وسط شارع النيل أمام ونتر بالاس، وعلى رصيف النيل المقابل أقيمت منصة عالية جلس فى وسطها أوين باشا وبجواره يمينا ويسارا لفيف من العسكريين الإنجليز والهنود والسودانيين، وإلى الجانبين صفوف من المقاعد جلس عليها كبار الموظفين والأعيان والتجار، وكأن على رءوسهم الطير، وخيم على المكان صمت القبور، وفوق المنصة رفع العلمان الإنجليزى والمصرى، ووقف الباشا وأدى التحية العسكرية لنا كما تقضى تقاليد النفاق، وتلا علينا بالإنجليزية أحكام المجلس العسكرى، وتلا الضابط السودانى ترجمتها بالعربية فى بوق مكبر للصوت ليُسمع الحاضرين والأهالى الوقوف».

(٥٤)

ومن المفيد أن ننقل عن محمد مظهر سعيد ما يرويه عما يتذكره من حكم المحكمة العسكرية عليه وعلى إخوانه:

« . . . وهذا ما أذكره منها:

«حكم المجلس العسكرى البريطانى المنعقد فى ٢٨ مارس ١٩١٩ بمدينة أسوان برئاسة البريجادير . . . وعضوية . . . لمحاكمة المعتقلين السياسيين المذكورين بعد وهم (الأسماء الأربعة) رئيس وأعضاء اللجنة التنفيذية العليا لما يسمى المجلس الوطنى للثورة بإقليم أسوان، وقد ثبت من تقرير السلطة المصرية المحلية أنهم ارتكبوا الجرائم الآتية عن عمد وإصرار وسابق تدبير:

١ ـ قاموا بالدعوة لثورة على الحكومة المحلية، وسمموا أفكار الأعيان والتجار والموظفين والطلبة، ودفعوهم للخروج على النظام العام، وألفوا ما أسموه بالمجلس الوطنى الذى حاول تولى الحكم المحلى، ونحوا الحكام الرسميين عن مناصبهم، اغتصبوا سلطتهم بطرق غير مشروعة.

٢ ـ قبلوا أن يكونوا نوابًا عن هيئة ثورية غير شرعية تدعى «الوفد المصرى» بالقاهرة، وممثلين لها بمديرية أسوان.

٣ ـ دبروا ونظموا وقادوا مظاهرات عدائية ضد الحكومة مما أدى إلى اضطراب الأمن وتفشى الفوضى، وما نجم عن ذلك من إتلاف وتخريب للممتلكات العامة والخاصة.

٤ ـ خالفوا عمداً أوامر السلطة العسكرية البريطانية القاضية بالإخلاد إلى السكينة، والتزام النظام.

٥ ـ اعتقلوا بعض ضباط جيش حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور وأسرهم واحتجزوهم بفندق كتراكت بأسوان، وحددوا إقامة المهندسين والموظفين الإنجليز فى مستعمرتهم بمنطقة خزان أسوان.

٦ ـ نادوا بسقوط الحكم القائم وحكومة حضرة صاحب العظمة سلطان مصر الذى أقرته حكومة بريطانيا العظمى، متحدين بذلك السلطة العسكرية لقوات الاحتلال».

«وبما أن العقوبات التى نص عليها القانون العسكرى الإنجليزى لهذه الجرائم تتراوح بين الحبس ستة شهور والإعدام، ومجموع أحكام الحبس والسجن مع الأشغال ٦٥ سنة، فإن عدالة حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة المتحدة وإمبراطور الهند، ومستعمرات ما وراء البحار، حفظه الله، ومراحم الحاكم العسكرى العام وقائد جيش الاحتلال، رأت التجاوز عن أحكام الحبس والسجن اكتفاء بعقوبة الجرائم الأولى وهى الإعدام رمياً بالرصاص فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٣ يونية ١٩١٩ علناً فى إحدى الساحات أمام الجمهور، وعلى جناب البريجادير أوين باشا الضابط السياسى المفوض من قبل الحاكم العسكرى العام إبلاغ المتهمين نص هذا الحكم فى الوقت الذى يراه مناسباً، واتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذه فى الوقت المحدد والمكان الذى يختاره».

«ووقف الباشا وأدى التحية العسكرية لنا مرة أخرى، وأشار إلى ضابط إنجليزى يحمل فى جرابه مسدساً ضخماً، فأمرنا أن ندور للخلف وتقدمنا فى السير تجاه سور الفندق الخارجى ووراءنا سرية ضرب النار ببنادقها، ودرنا مرة أخرى لنواجه المنصة، ووقف جنود السرية أمامنا صفاً واحداً، وفتش الضابط البنادق، وجاء بأوراق مستديرة بيضاء ثبتها فوق القلب تماماً، وربط على عينى كل منا عصابة سوداء فانتزعتها بغضب

وألقيتها على الأرض ودستها بقدمى، ثم ربط أيدينا من الخلف، وأخرج مسدسه ووقف باعتدال متجهًا للمنصة منتظرًا إشارة الضرب من الباشا، وطال انتظار الإشارة وقتًا ما».

(٥٥)

ثم نأتى إلى اللحظة الفارقة التى قدر فيها لهؤلاء أن ينجوا من حكم الإعدام الذى لم يكن بينهم وبينه إلا دقيقة واحدة أو أقل منها، فإذا بعربة مسرعة تحمل قائدًا كبيرًا تأتى لتنقذهم من هذا الموت المحدق بهم، ومع هذا فإن محمد مظهر سعيد، وهو صادق فيما يرويه، لا يتصور ما حدث إلا على أن حكم الإعدام قد نفذ فيه، وأنه قد أصبح فى القبر المظلم، وأنه وجد على صدره شيئًا لزجًا كالدم، وهو يحاور زميله حبيب فيجد عنده الظن نفسه فى أنهما ضربا بالرصاص وفارقا الحياة، وأنهما ينتظران حساب الملكين ويستعدان له:

« . . . وهنا رأيت عجبًا لم تصدقه عيناى، وآمنت بأن قدرة الله فوق قدرة البشر، والناس فى التفكير والله فى التدبير، فقد حدثت معجزة قبل تنفيذ الحكم بثوان، سيارة حربية يرفرف عليها العلم البريطانى، غبراء اللون من طول ما علق بها من تراب السفر الطويل، تندفع إلى المكان بسرعة جنونية فيفر الجنود من أمامها، وفى وسطها وقف جنرال إنجليزى أركان حرب يحمل الشريط الأحمر على قبعته، والشارة الحمراء على صدره، وصاح بأعلى صوته لضابط السرية: قف. . قف. . واندفعت السيارة نحو المنصة وأسرع الجنرال متجهًا نحو الباشا وتبادلا التحية وكلمات لم تصل إلى سمعى، وناوله مظروفًا عليه أختام بالشمع الأحمر، وما فضه الباشا وقرأ ما فيه حتى أشار لضابط السرية بالتقدم نحوه وألقى إليه ببعض الأوامر، فعاد وفك العصابات والأربطة، لقد رأيت كل هذا ولم أصدق حواسى، ولكن زميلى لم يريا شيئًا».

«وهنا تملكنى ذهول شديد، ووقف عقلى عن التفكير، وحواسى عن إدراك ما يحيط بى، ومر أمام عينى شريط حياتى من نشأتى الأولى، ولست أدرى ما حدث بعدئذ، ولا كم من الوقت مضى، ثم لا شىء مطلقًا مما جرى فى ذلك الوقت الطويل أو القصير، وفجأة تنبهت وعاد إلىّ شعورى وأحسست بجسدى ممددًا على الأرض

على شيء خشن حسبته رملاً، وفى مكان دامس مظلم صامت كالقبر، وحركت بصرى، ثم أصابع يدى، وتحسست جسدى ثم صدرى، ولمست فيه شيئًا لزجا له رائحة الدم، فأيقنت أنى رميت الرصاص ومت ودفنت فى هذا القبر، وحركت ذراعى بعيداً فلمست يد شخص آخر بجانبى يقوم بنفس المحاولة، فهمست وهمس بكلمات منقطعة خافتة ودار الحديث التالى :

- من أنت؟

- أنا حبيب . . وأنت مظهر؟!

- نعم!

- يظهر أننا ضربنا.

- نعم، وأنا أشم رائحة الدم فى صدرى.

- وأين مصطفى؟

- لا أدرى!

- هل جاءوا؟

- مَنْ هم؟

- الملكان.

- لسه.

- عارف الواحد يقول إيه لما يسألوه؟

- نعم.

- يسألان: مَنْ أنت؟ ومَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومَنْ رسولك؟ وما كتابك؟

فقل: أنا فلان ابن فلان، الله ربى، والإسلام دينى، ومحمد رسولى، والقرآن كتابى، وأشهد أن لا إله إلا الله».

(٥٦)

على هذا النحو نقرأ حديث صاحب المذكرات الذى يستقى معرفته مما يراه المرء فى

البيئة المصرية التى تحفل بتلقين الموتى عند دفنهم، وهو يمضى مع خيالاته هذه التى رحمه الله بها فى هذا الموقف العصيب ويظل ماضيًا معها حتى يعود إلى الحقيقة، فإذا به فى حجرة من المعتقل، وإذا بضابط سودانى يحكى لهم أنهم أحضروا من ساحة الإعدام إلى هذه الحجرة وهم فى ذهول، ذهبوا بعده فى نوم عميق فلم يشأ وزملاؤه أن يوقظوهم، ويلفت الضابط السودانى نظرهم إلى أن زميلهم الشيخ مصطفى لايزال نائمًا، ويطلب منهم إيقاظه فى هدوء:

«وقبل أن أتم الجملة سمعت وقع أقدام تتحرك وأعددت نفسى لمقابلة الملكين، وسطع النور الكهربائى فى هذا القبر المزعوم، وإذا بنا فى غرفة يغطى أرضها كليم صوف ونحن الثلاثة نيام عليه، وإذا ضابط المعتقل السودانى يقول: صح النوم.. الحمد لله اللى جت كده، وإن كنت لا أعرف شيئًا مما حصل ولا كيف حصل، ولكنهم أحضروكم هنا من ساحة الإعدام إلى المعتقل ثانية، وأنتم فى ذهول تام، وتبعًا للأوامر وضعناكم فى هذه الغرفة مؤقتًا حتى لا تختلطوا بزملائكم المعتقلين، وستنقلون غدًا إلى مكان آخر، واسف أننا لم نستطع أن نعد لكم غرفة أفضل، وعلى كل الحمد لله فقد نجوتم من الإعدام، وهذه معجزة لا أدرى كيف حصلت، وقد جئناكم بطعام الغداء ولكنكم كنتم تغطون فى نوم عميق فأشفقنا أن نوقظكم، وها هو الشيخ مصطفى لايزال نائمًا فأيقظوه بالراحة، نحن الآن بعد المغرب، وطعام العشاء معد».

(٥٧)

ولاتزال الحيرة مسيطرة على صاحب المذكرات وأصحابه وهم يلجأون إلى التكهن، لكنهم يعجزون عن التفكير فيفوضون أمرهم لله، ويحاولون النوم فيعجزون بالطبع عن النوم المتواصل:

«وهنا ذكرت قول الله تعالى: **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾** [الزمر: ٤٢]، وأدركت معنى الحكمة القائلة: «النوم هو الموت الأصغر»، وأيقظنا الشيخ فقام مذعورًا، ولما رآنا اطمأن وقبلنا، وحمدنا الله، وجلسنا نتناول الطعام، وجاء الضابط بالقهوة والشاى والسجاير، وأخذ الجميع يتبادلون الحديث ويتساءلون ماذا حدث بعد تفتيش البنادق؟ فهما لم يريا شيئًا، فذكرت لهما ما رأيت إلى

أن تهت عن الوجود، وأخذنا نتكهن عن السبب ونفكر فى المستقبل، وعجزنا عن التفكير وفوضنا الأمر لله، ونمت نومًا منقطعًا كله أحلام عن الماضى والحاضر والمستقبل».

(٥٨)

ويلخص محمد مظهر سعيد ما حدث فى قضيتهم والقضايا المشابهة من واقع ما ينقله من أقوال القائد العسكرى الذى روى لهم ما حدث من اتفاق القائد العام للقوات البريطانية مع الحكومة المصرية على إلغاء قرار محاكمتهم الأول وإعادة محاكمتهم، ومن الجدير بالذكر أن محمد مظهر سعيد نقل عن هذا الضابط نمطين من أنماط مشاعره تجاه الذين لقوا حتفهم قبل أن ينقذوا على نحو ما أنقذ مظهر وإخوانه، فالأولى مشاعر ارتياح لإعدام المتهمين الذين قاموا بالثورة فى دير مواس، لأنهم كانوا فى نظره متوحشين، وأما المشاعر الثانية فهى مشاعر أسف لمقتل مأمور بوليس أسيوط الشهيد محمد كامل قبل وصول القرار بإعادة محاكمته بدقائق:

«. . . لقد اتفق القائد العام مع الحكومة المصرية على إلغاء أحكام المجالس العسكرية على جميع المتهمين السياسيين المدنيين لأنهم لا يخضعون للقانون العسكرى، وإحالتهم إلى محاكم عسكرية لها نظام آخر، وهذه نسخة من قانونها عليكم أن تدرسوها بإمعان وترتبوا دفاعكم بمقتضاها، ونظرًا لضيق الوقت وتعذر الاتصال بالسكة الحديد أرسلت القيادة الجنرال وشى الذى حضر بالأمس وجاء بالسيارة العسكرية من القاهرة بأسرع ما يمكن إلى أماكن تنفيذ الأحكام لإبلاغ الأوامر الجديدة، وقد وصل دير مواس بعد إعدام المتهمين، وهم يستحقون لأنهم مجرمون متوحشون قتلوا مفتش السكة الحديد الأعزل وألقوا ببعض الضباط فى فرن وابور القطار وهم أحياء، وبذلك لا آسف عليهم، ولكنى أسفت على محمد كامل مأمور بوليس أسيوط، فقد أعدم قبل وصول الجنرال ببضع دقائق، وستنقلون الآن إلى سجن قنا انتظارًا للمحكمة العسكرية، وبهذا تنتقلون من السلطة العسكرية البريطانية إلى السلطة المصرية، وأرجو أن يحسنوا معاملتكم كما أحسناها، وإن كنت أشك فى ذلك، والآن انتهت مهمتى فأستودعكم الله، ومع السلامة، والحمد لله على نجاتكم، وودعنا وانصرف».

(٥٩)

ومن الطريف أن محمد مظهر سعيد يطلعنا على الوجه الآخر من هذا الموقف، وهو موقف زميلهم الثالث الشيخ مصطفى الذى كان فطنًا إلى طبيعة سياسة الإنجليز الخادعة التى تبرئ نفسها من الإجرام وتنسبه إلى الحكومة المحلية، وهو يعبر له عن إيمانه بهذه العقيدة بعد كل ما رأى من تصرفات الإنجليز فى السودان:

« . . . وفجأة أخذ الشيخ مصطفى يسب الإنجليز ويلعنهم بعبارات جارحة أدهشتنا وأفزعتنا فى نفس الوقت، فأنكرنا عليه مقابلة جميل الباشا بالجحود والنكران فقال: مؤكد أن السلطة المصرية ستبالغ فى إساءة معاملتنا بأمر السلطة البريطانية نفسها. إن الإنجليز مكارون مخادعون منافقون، وأنا أعرف سياستهم أكثر منكم، وقد جربتهم فى السودان، فقد كان المفتش الإنجليزى يأمر المأمور المصرى أن يسىء إلى السودانيين، ويشتط فى طلب الضرائب وجباية أموال الميرى، ويستخدم العنف والقسوة فى التحصيل، ويعاقب على الهفوات الصغيرة بأشد العقاب، فيتقدمون بالشكوى للمفتش بطبيعة الحال، فيستدعى المأمور المصرى أمامهم، ويعنفه أشد تعنيف وينذره بالعقاب وينصف الأهالى بأكثر مما كانوا يرجون، فيخرجون وهم يمجدون المفتش الإنجليزى ويحبون الإنجليز ويلعنون المأمور ويكرهون المصريين، كل هذا لبث كراهية المصريين فى نفوس السودانيين، والإشادة بعدل الإنجليز، والمصرى الذى يمتنع أو يحتج يعاقب وينفى للمديريات الاستوائية، والذى يرضخ يرقى، وها هم يكررون نفس الدرس معنا، يحسنون معاملتنا أولا، ويأمرون السلطة المصرية بإساءتها ليظهر الفرق بين الطرفين فتنطفئ روح الثورة عليهم فى نفوسنا، تمامًا كما يفعلون فى السودان، وسترون».

(٦٠)

ثم يورد محمد مظهر سعيد ما يدلنا على أن رؤية الشيخ مصطفى أو وجهة نظره كانت فى محلها، فها هم فى السجن، وإذا بالمأمور القائمقام جودة ينهى إليهم فى سرية أن الأوامر الإنجليزية صدرت إليه بإساءة معاملتهم، مع أنه يؤمن أنهم لا يستحقون الإساءة، لكنه مع هذا يدعوهم إلى عدم مخالفة لوائح السجن محذرًا لهم

من العقوبات القاسية التى يعتبر الجلد أخفها، وهو ينهى إليهم أنه يعرف تاريخهم وأنه سيحاول أن يتلطف معهم، لكنه يطلب إليهم أن يتعاونوا معه حتى تمر الأمور على خير، وقد سهل المأمور لهم أن ينضموا إلى بقية زملائهم المعتقلين، وأن يلتقوا بهم ويتناولوا معهم طعامهم:

«. . . واقتادونا إلى غرفة مأمور السجن القائمقام جودة، فوجدته رجلاً كبير الجسم، متجهم الوجه، يجلس إلى مكتبه كالأسد الضارى فى قفص حديقة الحيوان، وتأملنا قليلاً، ولما أوقفنا الضابط صفًا واحدًا أمامه صرخ قائلا: «مساجين. . زنهار. . سلام آل»، وكان النداء العسكرى وقتئذ بالتركية، فقال المأمور: «شوية شوية. . لسه بدرى عليكم، اتفضل أنت شوف شغلك»، فخرج الضابط وانتظر المأمور قليلاً حتى اطمأن من وقع أقدام الضباط أن ابتعد تمامًا عن الغرفة، وأمرنا بالجلوس وقال: كل البلاد تعرف إنكم ثوار أسوان، ونواب الوفد المصرى، والمعلومات كلها وصلتنى عنكم، ومفتش الداخلية أمرنى تليفونيًا هذا الصباح أن أشتد معكم أنتم بالذات، وأعاملكم معاملة المساجين العاديين، مع أنه لا محل لكم هنا، فأنتم لم يحكم عليكم، إنما أنتم معتقلون سياسيون فى انتظار المحكمة العسكرية، والسجن ليس مكانًا للحجز الاحتياطى، ولكن هذه هى الأوامر، ومفروض أننى هنا المأمور، ولكنى فى الواقع العبد المأمور، أنفذ الأوامر دون مناقشة، وما دمتم هنا فانسوا ما كنتم عليه بالخارج واذكروا فقط أنكم فى السجن، والسجن له لوائح يجب أن تتبع، وأوامر يجب أن تنفذ، والمخالفات لها عقوبات بدنية شديدة وقاسية، أخفها الجلد».

. . . .

«. . . ولكنكم رغم هذا ستبقون بملابسكم العادية، وتنضمون إلى بقية زملائكم المعتقلين وتنامون مثلهم داخل حرم السجن، وليس فى الزنزانات، وتحضرون طابور الصباح وعرض تنفيذ الأحكام ما عدا الشنق، وطبعًا لن تجدوا السجن مثل ونتر بالاس، أو حتى بيت سنجر، وستصادفكم أمور تدعو للشكوى، ولكن اعلموا أن أوامر مفتش الداخلية المشددة بشأنكم أنتم دون غيركم، وها أنتم ترون أنى أخاطر من أجلكم والأمر لله، فتحملوا ولا تصعبوا مهمتى».

. . . .

«. . . وهنا عدد من الثوار معتقلون مثلكم على ذمة التحقيق والمحاكمة، وستذهبون إليهم الآن وتتعرفون عليهم فى الغرفة المخصصة لهم، وصحبنا إلى الغرفة وقدمنا لهم وتركنا، فوجدنا غرفة خالية من كل شىء إلا من كليم على الأرض، ومَنْ فيها جلوس يتسامرون فرحبوا بنا وسألوا عن حالنا، وعرفنا منهم الأستاذ هاشم مهنا القاضى (ورئيس ديوان الحسبة بعدئذ)، والأستاذ الشاب مصطفى مهنا المحامى، والشيخ دندراوى، وشقيقه الشيخ رشيدى من أعيان قنا وثوارها البارزين، وحافظ بك الكلح من أعيان نجع حمادى، وابن أخيه الطالب بالثانوى، والشيخ غزالى المعلم الإلزامى، وعواد الفلاح الصعيدى، وبعد قليل لحق بنا الشيخ مصطفى الأقصرى، والشيخ الحجاجى، وفى موعد الغداء جاءت صوانى عليها أطعمة طيبة مطهية لهم، كانت تأتيهم من أهليهم، وجاء السجان بطعام السجن لنا، فأقسموا علينا أن نشاركهم الطعام فهو يكفى وزيادة، فقبلنا شاكرين، وعلم أعيان وتجار قنا بنزولنا السجن فاعتبرونا ضيوفًا عليهم وأخذوا يرسلون الطعام لنا مع إخواننا».

(٦١)

ويستطرد محمد مظهر سعيد إلى قصة الزيارة التى قام بها الأميرالاى لوكاس مفتش عام السجون إلى المعتقل الذى أودعوا فيه، وقد كانت لهذا الرجل صلة قوية بمظهر سعيد حيث كان أستاذ الجغرافيا فى المدرسة الخديوية، وكان وهو مدرس يعامل مظهر باللطف والحنو، لكنه على العكس أو النقيض من ذلك أساء معاملته إلى أقصى حد وضربه على وجهه ضربتين قاسيتين أسالتا الدم من صدغه ووجهه:

«. . . . . . وحدث ونحن بمنزل المأمور أن طلب منا ترجمة برقية وردت صباحًا تقول: إن الأميرالاى لوكاس مفتش عام سجن الوجه القبلى سيزور السجن بعد يومين لاستعراض المسجونين السياسيين، وما سمع المأمور هذا حتى استعاذ بالله من شر هذه الزيارة لأن الرجل شرس، حاد الطبع، سريع الغضب، ورجانا ألا نستفزه بكلمة أو إشارة، ولا نرد أبدا على ما يقول، وربنا يجيب العواقب سليمة، وأخذنا ننتظر هذا اليوم المشئوم فى قلق واضطراب، ونبهنا زملاءنا بالتزام الهدوء والصبر، وعدم الشكوى أو الرد عليه بما يغضبه».

«وفى اليوم المعهود خرجنا نحن المعتقلين السياسيين إلى حوش السجن ووقفنا فى نصف دائرة وحولنا الضباط والسجانون، أما المأمور ونائبه فكانا أمام الباب الرئيسى يستقبلان جناب المفتش العام، ودخل علينا الرجل بلباسه العسكرى، وطربوشه الأحمر، ومعه عصا من الخيزران ذى العقل المدببة يهزها يمينا ويسارا، كأنه يتحفز للضرب، ومن خلفه سرية من جنود الجوركا الهنود البدائيين يحمل كل منهم بندقية ركبت فيها السونكى، ووقفوا خلفنا كالتماثيل والبنادق فى ظهورنا، وتفرست فيه فإذا هو نفس المدرس المستر لوكاس مدرس الجغرافيا بالمدرسة الخديوية، الذى كان يعاملنى بمنتهى اللطف والحنو، فاطمأنت نفسى قليلا».

«واقترب منا الرجل وكأنه أسد هصور، ووقف يتطلع إلينا واحدًا واحدًا، وأخذ يقذف من فمه سيلاً من أقذع الشتائم، ويسب الثوار المصريين الناكرين لجميل بريطانيا على مصر، بريطانيا التى أصلحت البلاد، ورقتها ومدنتها وحمتها من الألمان والطليان، كما حمتها من الأتراك من قبل، وأخذ يسأل كلا منا عن اسمه وعمله، وبدأ بالصعيدى العملاق وقال: أنت حمار بهيم لا تعرف شيئًا، اخرج بره امشى، واتجه إلى المشايخ وقال: أنتم الآخرين بهائم، أطيان كتير وفلوس كتير لكن مخ مفيش، الحق على اللورد كرومر اللى كان يدافع عن الفلاح ويحميه من ظلم الباشوات، ثم قال للمحامين: أنتم بغبغانات كلام فارغ كتير، خطب وهتافات، كلام. . كلام، بريطانيا لا تخرج بالكلام والخطب والهتاف والمظاهرات، ثم أشار إلىّ بالعصا فقلت: أنا سعيد جدًا لوكاس بك لتشريفك اليوم، أنا مظهر سعيد تلميذك فى الجغرافيا فى المدرسة الخديوية وفى الكورة والجمباز، فنظر إلىّ بطرف عينه وقال: ودلوقت بتشتغل إيه؟ قلت: مدرس، فرفع عصاه وضربنى على وجهى ضربتين قاسيتين أسالا الدم من صدغى ووجهى، وفقدت صوابى وكدت أهجم عليه ولكن حبيب تصدى لى وحسنًا فعل، فقد أحسست بالسونكى يغرسه الجندى الجوركى الواقف ورائى بين ضلوعى، فوقفت ساكنًا ورفعت يدىّ إلى أعلى علامة الاستسلام، وصاح لوكاس غاضبًا هادرًا كالثور الجامح: أنتم المدرسين أنتم طاعون البلد، تسمموا أفكار التلاميذ والأعيان والفلاحين الحمير يعملوا مظاهرات وتخريب، وتعلموا الفلاحين والعمال العصيان والثورة، أنتم تستاهلوا ضرب من غير رحمة، ويبدو أن الغضب أفقده صوابه وازداد

احمرار وجهه وأذنيه، فأدار وجهه وانصرف والمأمور وجنود الجوركا فى إثره دون أن يتم دورة الأسئلة، وحضر الطبيب وضمد جراحي ونقلونى إلى غرفة الجلوس».

(٦٢)

وتتوالى المفاجآت التى قدر الله أن ينجى بها محمد مظهر سعيد وزميليه من الإعدام أو من حكم قاس، فها هو الضابط المصرى المكلف بأن يتولى الترجمة يطلب من المحكمة أن تأذن له فى إطلاع المتهمين على قانون الأحكام العسكرية، ويستغل هذا الموقف لتلقين هؤلاء المتهمين وإرشادهم إلى ما يمكنهم من الإفلات من العقوبات، كما أنه يؤكد لهم ما استنتجه محمد مظهر سعيد من أن هؤلاء الأهالى قد جيء بهم ليشهدوا ضدهم، وقد أحس بهذا عندما لم يردوا عليه التحية حين ألقاها عليهم:

«. . . . وبعد أسبوع حضرت المحكمة العسكرية، وأفردوا لها قاعة فسيحة فى السجن، وضعت فيها منضدة كبيرة طويلة وعدة كراسى حولها، وأمامها ثلاثة كراسى، ودعينا نحن الثلاثة فقط: أنا وحبيب ومصطفى قديس، للمثول أمامها، وفى طريقنا إليها وجدنا عدداً من أهل أسوان جلوسًا ووقوفًا فى الحديقة خارج غرفة المحكمة، وفيهم ناظر المدرسة وسكرتيرها، وألقينا التحية فلم يرد أحد فأدركنا أنهم شهود إثبات جنّدهم مفتش الداخلية ضدنا، ودخلنا الغرفة فوجدنا حول المنضدة هيئة المحكمة برئاسة بريجادير إنجليزى وعضوية قائمقام هندى وضابطين إنجليزيين آخرين، وإلى جانب المنضدة يوزباشى مصرى يقوم بالترجمة، وقبل بدء المحاكمة استأذن الضابط المترجم اليوزباشى حسن حسنى الزيدى (الفريق الزيدى فيما بعد) رئيس المحكمة أن ينتحى بنا جانبًا ليشرح لنا قانون المحكمة العسكرية الإنجليزية، وهنا تمت المسرحية الرابعة البالغة الخطورة التى قام فيها الزيدى بدور المؤلف والمخرج وأداه بكل شجاعة وجرأة وتضحية ووطنية صادقة، فقد فتح الكتاب فعلاً وتطلع إلينا كأنه يقرأ ويترجم، وقال فى صوت خافت: «أنا وطنى مثلكم ما تخافوش، وأنت يامظهر أنا صديق والدك، لقد رأيتم فى الخارج أشخاصًا تعرفونهم فى أسوان أحضرهم المدير بأمر مفتش الداخلية ليشهدوا ضدكم»، ورسم لنا خطة الدفاع وطريقة الكلام والإجابة،

وناشدنا أن ننفذها بحذافيرها كما رسمها، وقد كان، وبفضل الله والزيدى نجونا من الموت، أو على الأقل السجن أو الجلد، وعاد بنا وأوقفنا أمام المنضدة».

(٦٣)

ونصل إلى جوهر الدفاع الذى قام به صاحب المذكرات عن نفسه، وكيف نجح فى أن يحول القضية إلى قضية شخصية مع مدير أسوان وزعم أن المدير كان يبتغى تزويجه هو وصديقه حبيب من ابنتيه لكنهما اعتذرا لارتباطهما السابق، ولا ندرى هل كانت هذه الفكرة من بنات أفكار محمد مظهر سعيد، أم أنها كانت من ضمن ما أشار عليه به اليوزباشى حسن الزيدى، والاحتمالان واردان، ويروى صاحب المذكرات أن القاضى العسكرى الإنجليزى بدأ يميل إليه:

«. . . . ونادانا رئيس المحكمة واحدًا واحدًا بأسمائنا فأجبنا باحترام وقال: أقسموا أشهد بالله العظيم أن أقول الحق كل الحق، ولا شىء غير الحق، وأقسمنا، فأمرنا بالجلوس على الكراسى المعدة لنا فى مواجهته، وقال: أنتم الثلاثة، فلان، وفلان، وفلان، أما الرابع فلان فقد سقطت عنه الدعوى لوفاته، متهمون بكذا وكذا، وتلا نفس الاتهامات الواردة بحكم المجلس العسكرى السابق دون ذكر الأحكام، وتمهل قليلاً ثم قال: أنتم تحاكمون أمام محكمة عسكرية وفق القانون الإنجليزى الذى اطلعتم عليه منذ قليل، فهل لكم اعتراض على هيئة المحكمة؟ فانبريت بسرعة، حسب تعليمات الزيدى، وقلت: ياسعادة الجنرال الرئيس إنه يسعدنا ويشرفنا نحن الذين درسنا فى جامعة كمبردج أن نقف أمام (قاض) إنجليزى وقضاة بريطانيين عرفوا بالعدالة والإنسانية والتمسك بروح القانون وليس بحرفيته، فابتسم وقال: إن هذه التهم التى تشير إليها التقارير: مظاهرات عدائية، تعطيل لأعمال الحكومة، تخريب، تقارير وشهود كلها تدينكم، فهل أنتم مذنبون أم غير مذنبين؟ فقلنا معًا: غير مذنبين، وعدت فقلت يسمح لى سعادة الجنرال بكلمة: إن هذه التقارير المختلفة صادرة عن مدير المديرية والبوليس والمدير كاذب جبان، وكانت بيننا وبينه أمور شخصية دفعته للنكاية بنا، وهناك سر أخجل أن أبوح به علنًا، أقوله للرئيس فى أذنه إذا سمح، فقال:

بل قل للمحكمة كل ما تريد، فليس هناك أسرار، فقلت: إن المدير له بنتان فأراد أن يغرينا بزواجهما، أنا وحبيب، وهما لا تجدان فى أسوان مَنْ هم أفضل منا شبابًا وثقافة ومركزًا، فاعتذرنا بطبيعة الحال لأن حبيب خطيب شقيقتى، وأنا خطيبتى تنتظرنى بالقاهرة، ومن ذلك الوقت تغيرت معاملته لنا فقاطعنا وسلط البوليس وراءنا لمضايقتنا، بعد أن كان يدعونا بين آن وآخر لتناول الشاى، ولو حضر هنا أمام المحكمة الموقرة لفضحت لكم كذبه، أما البوليس فمعذور لأنه مأمور وعليه أن يلفق ويكذب ويزور كما يأمره المدير، فتجهم وجهه وظهر الغضب عليه لأن القضاة الإنجليز لا يكرهون شيئًا أكثر من النقائص الخلقية، كما لمست بنفسى أثناء دراستى بإنجلترا فيما بعد».

«ثم قال: ما علينا، فما الذى حدث إذًا فى أسوان؟».

(٦٤)

وعند هذا الحد يجد محمد مظهر سعيد الفرصة سانحة ليروى الأحداث المعروفة مع تحويرها تحويرًا ذكيًا بالقدر الذى يكفل نجاته، ومن دون أن يظهر أنه يختلق قصة جديدة تتعارض مع ما استقر فى الأذهان والوجدان والأوراق، وهنا نلمس مدى ذكاء الرجل الذى تمكن من صياغة جديدة ودقيقة لا يزيد فيها الاختلاق على الحد المطلوب لنجاته ونجاة أقرانه:

«. . . . . . فقلت: أما وقد أقسمنا اليمين أمام المحكمة الموقرة، فبالنيابة عن زملائى أقرر الحقيقة كاملة تحت مسئوليتى وأترك لضمائركم الحية وعدالتكم المعروفة تقدير الظروف والملابسات، ونحن قابلون مطيعون للحكم كيفما كان».

«فارتاح الرئيس على كرسيه وابتسم وقال: استمر، فقلت: حقيقة الأمر أن الشعب كله خرج فى مظاهرة سلمية لإظهار شعوره نحو قضية بلاده العادلة، وهذا أسلوب لإعلان الرأى العام الحر، وقد شاهدنا الكثير من هذا فى حديقة «هايد بارك» بلندن، بل إننا شاهدنا ملاحدة وفوضويين يعلنون آراءهم المتطرفة فى حرية مطلقة، وأشخاصًا يتناولون الأسرة المالكة والكنيسة والبرلمان والحكومة بنقد لاذع وبذىء أحيانًا،

والجمهور يسمع فى هدوء والبوليس لا يتعرض لأحد، لأن القانون الإنجليزى يحمى حرية الرأى ولا يعاقب عليه، فرديًا أو جماعيًا، مهما كان متطرفًا ومنحرفًا، وإنما يعاقب على استخدام العنف والإكراه والوسائل غير المشروعة فى تنفيذه، ولم يحدث أى شيء من هذا فى أسوان».

«وقاطعنى الضابط الهندى قائلاً: أنتم كما يقول التقرير لم تشتركوا فى مظاهرة فقط لكنكم دبرتم وأشرفتم وقدتم وحملتم الطلبة والموظفين والأهالى على الاشتراك فيها».

«فأجبت فى هدوء وابتسام موجهًا كلامى للرئيس: إن المظاهرة إذا لم تكن لها قيادة محترمة مطاعة يحتمل جدًا أن تضم بعض المتحمسين غير المسئولين أو حتى الغوغاء الذين لم يعتادوا النظام، وقد خشينا من هذا وحسبنا حسابه، ولما كنا مدرسين لنا مكانة مرموقة وكلمة مسموعة عند الطلاب وأولياء أمورهم، فقد طلبوا منها أن نقوم بمهمة الإرشاد والقيادة، وقد كلفنا الضابط فعلاً بالقبض على بعض الغوغاء الذين أرادوا اقتحام محطة السكة الحديد وتخريب القطار وقطع أسلاك التلغراف والتليفون».

(٦٥)

وهنا ينتبه الشريك الثانى لصاحب المذكرات إلى ما ينبغى عليه أن يدعم به الرواية التى قدمها زميله، وهكذا يتدخل حبيب وينبه المحكمة إلى حقيقة دورهما السابق فى إبلاغ السلطات البريطانية عن الأدوات التى كان يستخدمها صاحب الفيلا الألمانى فى التجسس، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أنهم لم يكونوا أعداء للبريطانيين، وإنما كانوا على العكس من ذلك حريصين على التعاون معهم، وهو يردف هذا بالحديث عن دورهم فى الحفاظ على أرواح الضابط الإنجليزى والسكرتير المالى لحكومة السودان وعامل الإنجليز فى مستعمرة الخزان:

«. . . . . وتدخل حبيب وقال: وأحب أن تعرف المحكمة الموقرة أننا عثرنا بالفيلا التى كان يملكها الجاسوس الألمانى الخطير فريتزر فورل واستأجرناها من الحراسة البريطانية على أملاك رعايا الأعداء، على جهاز لاسلكى وشفرة حربية سرية،

وسلمتها للحارس القضائى، وكيل البنك الأهلى بأسوان، ووصلنا خطاب شكر وتقدير من القيادة العسكرية العليا».

«وقد حافظنا على الضباط الإنجليز وأسرهم فى فندق كتراكت وأجبنا كل طلباتهم، وأكرمناهم كل الإكرام، وكذلك مع برنارد باشا السكرتير المالى لحكومة السودان ومرافقيه، ويسرنا لهم العودة للسودان فى أمان وسلام، أما عن المهندسين والموظفين الإنجليز بمستعمرة الخزان فقد خشينا عليهم من تهجم بعض الغوغاء الذين لا سلطان لنا عليهم هناك فحرسناهم وأجبنا كل طلباتهم، وقد سجل الضباط شكرهم فى دفتر الفندق، فأرجو أن تطلبوه لتطلعوا عليه، ودون الرئيس بعض ملاحظات على ورق أمامه».

(٦٦)

ويعود محمد مظهر سعيد ليستشهد بالوقائع التى حدثت بالفعل بما يدل على براءتهما الظاهرة من مثل هذه التهم التى أجيد سبكها وترتيبها:

«. . . . . . وتسلمت طرف الخيط من حبيب وقلت: إذا كانت المحكمة الموقرة قد اطلعت على تقارير كاذبة مزيفة، فهناك تقارير صادقة كتبها الضباط الإنجليز الشرفاء وعلى رأسهم برنارد باشا نرجو الاطلاع عليها لتتأكدوا أن هذه الدعوى كيدية باطلة، فابتسم الرئيس وقال: لقد سلمنى أوين باشا تقرير برنارد باشا عنكم واطلعت عليه وهذا هو، وسلمه إلى الضابط الهندى الذى هز رأسه وقال فى عناد: ومع ذلك فلابد من سماع الشهود».

(٦٧)

هكذا يدلنا محمد مظهر سعيد على أنهم كانوا يعتمدون على بديهة سريعة مكنتهم من أن يحولوا الشهود المجبرين عن موقفهم الذى جاءوا من أجله وتجهزوا له بما لقنتهم السلطات:

«. . . . . وجاءت لحظة المسرحية، فرفعت أصبعى للرئيس وقلت: أستأذن المحكمة فى استراحة قصيرة، نؤدى فيها فرض الصلاة وقد حان موعدها،

وأذن الرئيس بذلك، فوقفنا قرب الباب ووقف الشيخ مصطفى أمامنا ورفع يديه للسماء وقال بصوت عال يسمعه مَنْ فى الخارج: «أنتم ياشهود ياللى بره اسمعوا، والله العظيم ثلاثًا لو حد منكم شهد ضدنا أو قال إنه سمعنا أو شافنا لابد نجيب رجله ونثبت أنه اشترك معنا بالباع والدراع، وأنه فى وسط المظاهرة، وتدخلوا السجن معانا»، وأخذنا نصلى ركعتين وفى كل ركعة يكرر الشيخ هذا التحذير، وكان الضابط الهندى لا يعرف صلاة المسلمين فسأل الرئيس: ماذا يقولون؟ فرد عليه: إنهم يتلون آيات القرآن كتاب المسلمين المقدس، وتمت مسرحية الصلاة فعدنا وجلسنا أمام المحكمة، وتداول الرئيس مع العضوين الآخرين وقال: حسنًا، استدعوا الشهود، فدخل جماعة منهم وبسؤالهم أخذ كل منهم يجيب بسرعة وكأنه يود أن يطير ويهرب بعيدًا عن المكان: أنا لم أر ولم أسمع، أنا كنت بعيد عن المظاهرة، أنا كنت بالبيت، أنا كنت مريض، أنا كنت خارج أسوان، وطبيعى أنهم سمعوا التهديد وهم خارج غرفة المحكمة، وبعد سماع عدة شهود والبقية مازالت تنتظر بالخارج ضاق الرئيس ذرعًا وتملكه الغضب وضرب المنضدة بيده وقال: شىء عجيب! هذا المدير مجنون أو إنسان كاذب شرير، لماذا أحضر كل هؤلاء كشهود إثبات وهم فى الواقع شهود نفى، اخرجوا جميعًا عليكم اللعنة، وعلى كل حال أنا مكتف تمامًا بتقرير برنارد باشا ولا أريد أن أسمع شيئًا آخر، وأشار إلينا وقال: انصرفوا أنتم وسنبلغكم الحكم فيما بعد، فشكرنا المحكمة على سعة صدرها وعدالة حكمها المنتظر، وعدنا إلى غرفة جلوسنا بالسجن، وبصّرنا زملاءنا المحامين المصريين المعتقلين بأسلوب المحاكمة ونظام المحكمة، وأجمع الكل على أن طرد رئيس المحكمة لبقية الشهود علامة طيبة، وفأل خير، وعدنا إلى حياة السجن الروتينية كما كنا».

(٦٨)

على أن الأمور التى قادت إلى براءات هؤلاء لم تكن لترضى غرور مفتش الداخلية الذى صمم على أن ينتقم بكل طريقة من هذين البريئين، لكن مأمور السجن بضميره الحى أبى أن ينساق إلى إجراءات تعسفية لا داعى لها فى نظره، فإذا هو يطيب خاطر

مظهر وحبيب ويحرص على أن يعدهما بأنه سوف يعوضهما عن بقائهما فى السجن بكل ما يمكنه من تعويض :

«. . . . . وذات يوم استدعانا مأمور السجن نحن الثلاثة إلى مكتبه ودخلنا فوجدناه غاضبًا أشد الغضب وفى يده خطاب يقرؤه بإمعان، ولما رآنا انفجر يقول : «الراجل مفتش الداخلية ده وحش مجنون، بينكم وبينه إيه، أنتم قتلتم أبوه وبينكم وبينه تار بايت»، اسمعوا أمر جنابه : بما أن المحكمة العسكرية قد أصدرت حكمها بالبراءة فى قضية فلان وفلان وفلان، فيخلى سبيل الشيخ مصطفى قديس فورًا ويفرج عنه وتسلم له تذكرة سفر بالدرجة الثالثة بالسكة الحديد ويرحل إلى أسوان مباشرة، أما المتهمان الآخران فلان وفلان فيبقيان فى السجن لحين محاكمتهما أمام السلطة المحلية، وعلى كل حال مبروك ياشيخ مصطفى وأرجو بمجرد وصولك أسوان أن تزور الفيلا وتطمئن الجماعة هناك وتطلب منهم فورًا إرسال رسول ومعه طاقم ملابس جديدة وغيار لكل منهما، وكان هذا ممنوعًا منذ دخولكم السجن بأمر مفتش الداخلية، أما النقود فممنوعة بتاتًا داخل السجن، وهذه هى تذكرة السفر ويمكنك أن تزور بقية زملائك للوداع، أما أنتما من الآن فلستما مساجين ولا معتقلين وإنما ضيوف إلى أن يأذن الله بالفرج، ولا يملك مفتش الداخلية ولا مَنْ هو أكبر منه أن يحاكمكم مرة أخرى بعد حكم المحكمة العسكرية، وستتغير المعاملة من اليوم وأنا المسئول، فلكما أن تقضيا الوقت مع زملائكم أو فى الحديقة أو فى مكتبى، وتتناولون الطعام كالمعتاد، أما المبيت فسيكون فى مستشفى السجن، وقد أعددنا لكما غرفة خاصة مريحة، وذهبنا مع الشيخ مصطفى إلى غرفة جلوس الزملاء وأعلنا خبر الإفراج عن مصطفى فقابلوه بالعناق والتقبيل، وطال عناق الأستاذ مصطفى المحامى لسميه، فارتجل الشيخ الأقصرى على البديهة هذين البيتين :

ضاقت علينا حجرة   بالسجن ليس بها صفا
ومن العجائب مصطفى   فيها يعانق مصطفى

«فضحكنا وودعنا الشيخ ورحل».

(٦٩)

ويتوالى التعاطف الحكومى مع مظهر وحبيب فيأتيهما رئيس نيابة قنا بعد يومين بنفسه ويتولى بنفسه كتابة ما ينجيهما به من عسف مفتش الداخلية الإنجليزى وبطشه، صادراً فى هذا عن خبرته بجنون هذا المفتش الإنجليزى:

« . . . . . وبعد يومين دعينا إلى مكتب المأمور مرة أخرى فوجدنا على مكتبه رجلاً وقوراً لم نره من قبل، وإلى يمينه ضابط بوليس مصرى، وإلى يساره كاتب أمامه دفتر مفتوح، وبعد التحية قدمنا إليه المأمور وعرفنا أنه رئيس نيابة قنا، وقال الرجل: أهلاً وسهلاً بالأساتذة الثوار الوطنيين نواب سعد باشا والوفد المصرى، تفضلوا بالجلوس فلى معكم كلمتان، ونظر فى ورق أمامه وقال: أنا مش عارف إيه اللى بينكم وبين مفتش الداخلية، الراجل المجنون ده له تصرفات غريبة غير قانونية وعامل دكتاتور فى البلد ولا أحد يستطيع أن يقف فى وجهه ويصده، وقال للمأمور: أنت فاكر الأمر الذى أصدره بأن كل مصرى فى أى مكان مهما كانت مكانته إذا مر عليه ضابط إنجليزى بأى رتبة عليه أن يقف ويؤدى التحية العسكرية، وفاكر أخينا القاضى كان جالس فى المقهى ومر عليه ضابط إنجليزى مجرد ملازم وكان يقرأ الجرنال فلم يره، فعاد الضابط ومعه جنود مسلحين قبضوا عليه وأهانوه وأوسعوه ضربًا، وأنت ياحضرة اليوزباشى صدر لكم أمر بالوقوف والسلام باحترام واحتشام لأى ضابط إنجليزى ولو كان أقل منكم رتبة، وناقص يأمروا بالوقوف للعساكر كمان، وهكذا انقلبت الأوضاع».

«وقد عرف هذا الرجل المجنون أن المحكمة العسكرية برأتكم وليس له سلطان عليها فاستغل سلطته فى الحكومة المصرية وطلب إحالتكم إلى النيابة للتحقيق معكم من جديد وإحالتكم إلى محكمة الجنايات المصرية مخالفًا بذلك القانون، ولكننى أعرف كيف أرد عليه وأوقفه عند حده بالقانون مهما كانت النتيجة، افتح المحضر ياحضرة الكاتب واكتب:

«إنه فى الساعة. . . من يوم. . . الموافق. . . حضر أمامنا نحن رئيس نيابة قنا بسجن قنا بناء على طلبنا الأستاذان. . . و. . . للتحقيق معهما فى التهم الموجهة إليهما من جناب المستر ماكنوتن مفتش الداخلية، توطئة لإحالتهما لمحكمة الجنايات،

بناء على أمره المذكور بخطابه رقم . . . بتاريخ . . . وبما أن هذا الطلب غير قانونى ومرفوض شكلاً وموضوعًا، لأن المحكمة العسكرية سبق أن نظرت هذه الدعوى وحاكمت [الأستاذين] على نفس التهم المذكورة فى الخطاب، وأصدرت حكمها بالبراءة، وحكمها نهائى واجب التنفيذ وغير قابل للاستئناف أو النقض أو أى وسيلة من وسائل الطعن، ولا يجوز للمحاكم المصرية أن تعيد النظر فى أحكام المحاكم العسكرية، فبناء على المواد . . . من قوانين . . . نقرر تحت مسئوليتنا أن الأستاذين المذكورين . . . لم يرتكبا أية جريمة (جناية أو جنحة أو مخالفة) يعاقب عليها القانون الجنائى المصرى، ولهذا نأمر بحفظ الدعوى نهائيًا والإفراج عنهما فورًا ما لم تكن هناك أوامر من سلطات أخرى حكومية . . . ».

«إمضاء وختم»

(٧٠)

ونصل إلى نهاية عهد الرجلين بالسجن والمعتقلات ونرى الروح الوطنية تسرى فى دماء المصريين وهى تقيم الاحتفالات الفورية بمجرد العلم بخبر الإفراج عن الرجلين، وهو الخبر الذى كان يسبق تحركهما من محطة إلى محطة من محطات القطار:

« . . . . . وشاء القدر الرحيم فى صباح يوم ٢٠ أغسطس ١٩١٩، وهو بالمصادفة يوم عيد ميلادى، أن استدعانا المأمور إلى مكتبه وبلغنا فى سرور بالغ أمر الإفراج عنا وترك السجن فورًا والسفر إلى أسوان رأسًا بالقطار بتذاكر الدرجة الثالثة، لأن مفتش الداخلية يريد إذلالنا حتى فى آخر لحظة، وبالطبع لم تكن معنا نقود لنركب الدرجة الثانية على الأقل وندفع الفرق، فشكرناه وذهبنا نودع زملاءنا وعدنا إلى المكتب فوجدنا ضابط بوليس مصرى وشرطيين مكلفين بمرافقتنا إلى المحطة والانتظار حتى يقوم القطار منعًا لاختلاطنا بالأهالى، ولكن اتضح أن ناظر محطة قنا رآنا وعرفنا فأبرق إلى ناظر محطة الأقصر وهذا بدوره إلى ناظر محطة أسوان، وانتشر الخبر فى المدينة وكان لذلك أثر كبير فى استعدادهم لاستقبالنا».

ولا يفوت محمد مظهر سعيد بعد هذا كله، وبعد أن يروى الحفاوة والترحيب والتمجيد الذى حظى به هو وزملاؤه أن يروى أن المدير نفسه كان قد حاول أن يعتذر لوالدته عما ارتكبه معهم، وأن يمضى فى خداعها عن موقفه المتواطئ مع سلطات الاحتلال، وأنه وصل فى هذا السبيل إلى حد أن ذهب بنفسه إلى الفيلا ليعتذر لها إلا أنها بذكائها الشديد لقنته درسًا قاسيًا ولم تسمح له بمقابلتها، وأهانته على مسمع من الناس:

«. . . . . . وذات صباح حضر المدير فى عربته وحوله حراس مسلحون من رجال البوليس كأنه فى موكب رسمى، ودخل الحديقة من الباب الكبير، وهرول «ركابى» يخطر الوالدة برغبة المدير فى مقابلتها، فوقفت فى الشرفة ونادت الضابط السودانى فحضر مع سرية من الحرس، وكانت قد أخبرتهم بالدور الذى لعبه المدير فأنكروا عليه نذالته، واقترب المدير من الشرفة، فقالت له فى حزم: قف مكانك لا تتقدم، ماذا تريد؟ هل تريد أن تقبض علينا نحن الآخرين؟ وفزع المدير من هول المفاجأة، ودار الحديث على مسمع من الجميع كما يلى:

«المدير: صباح الخير ياهانم أفندى، أنا آسف جدًا لما حصل ولا ذنب لى فيه والله العظيم، وأنا والمديرية كلها فى خدمتكم ورهن إشارتكم، ومستعد لإجابة كل طلباتكم، أؤمرى وعلينا الطاعة».

«الوالدة: ماذا فعلت بزوجتك المسكينة التى أقسمت عليها؟ هل طلقتها كما حلفت لهم ثلاثا أمام الشهود وكذبت عليها كما كذبت عليهم، اخرج يارجل ولا ترنى وجهك، وسيكون بيننا وبينك حساب عسير وكل آت قريب، نحن والحمد لله فى غنى عنك وعن أمثالك، وإذا لم تخرج فى سلام فسأكلف الحرس السودانى إخراجك بالقوة وليس لك عليهم سلطان».

«وتلفت الرجل حوله فرأى الجميع حتى حراسه ينظرون إليه شذرًا، فحنى رأسه فى خجل وخرج، واقترب الضابط السودانى من والدتى وقبل يدها فدعته للجلوس وشرب القهوة وأخذ يقول: سيدة ولا كل السيدات، شجاعة أم الشجعان».

«وتناقل هل أسوان هذا الحديث فزادهم إكباراً لها وتقديراً لشجاعتها وبطولتها إلى حد أن الوالدات أخذن يسمين بناتهن «فاطمة» على اسمها «فاتيمة» والأولاد «مظهر» و«حبيب» .

(٧٢)

ثم يقفز صاحب المذكرات إلى ما بعد هذه الأحداث بربع قرن حين أتيح له أن يزور أسوان فى عمل رسمى ، وهو يوجز القول فيما لقيه من ترحيب وتمجيد ، وفى أصداء ذكراه فى نفوس الأهالى :

« . . . . . وفى سنة ١٩٤٤ بعد ربع قرن بالضبط من الثورة ، شاءت الظروف دون سابق تفكير أو تدبير أن أزور أسوان فى مهمة رسمية تستغرق ثلاثة أيام للتفتيش على معاهد المعلمين والمعلمات والمدرسة الثانوية ، وكنت وقتئذ مفتشًا عامًا بوزارة المعارف ، ومن عجيب الصدف أنى وصلت فى نفس اليوم الذى بدأت فيه الثورة وهو ١٥ مارس» .

«وذهبت بعد الظهر مع لفيف من رجال التعليم إلى النادى على شاطئ النيل ، لحفل شاى أقاموه لى ، وكان من بين المدعوين مدير أسوان وكبار الموظفين ، وكان هناك ماسح الأحذية «مصطفى» ، وكان قد كبر سنًا ، وتهدل جِسمًا ، وما إن سمع اسمى ووقعت عينه علىّ حتى ترك ما فى يده وأقبل مهرولاً يقبل يدى ، ويعانقنى ويقول فى تحمس والدموع تترقرق فى عينيه : «مظهر البطل جه ياولاد ، غبت عنا غيبة طويلة ، وما كانش يصح منك ، إذا كنت نسيتنا فنحن فاكرينك ولا ننساك أبدًا ، أمال فين حبيب؟ ودهش الحاضرون من هذه المفاجأة العجيبة وسألونى فقلت بإيجاز : نحن معارف منذ أن كنت هنا سنة ١٩١٧ ، ولم أشر إلى ثورة ١٩١٩ ، فليس هناك داع للتفاخر بجهاد مضى وانقضى منذ ربع قرن وأصبح فى ذمة التاريخ ، وعلى الأقل فى ذاكرتى إن كان التاريخ نسيه ولم يسجله» .

«وانطلق مصطفى يذيع الخبر كعادته القديمة ، وراح يخبر الأصدقاء القدماء بحضورى ، وبعد فترة طويلة (!!) أقبل فوج كبير منهم للتحية حتى امتلأ النادى وظن

المدير فى أول الأمر أنهم قادمون لمقابلته فى شأن ما، فقام لمقابلتهم لكنهم تركوه وأقبلوا نحوى بالعناق والقبل والسؤال عن حبيب والوالدة وإخوتى، وسألهم المدير عن المناسبة فقالوا له فى حماس: هذا البطل مظهر قائد الثورة وحاكم الإقليم سنة ١٩١٩، فازددت حرجًا ورجوتهم عدم الإشارة للثورة، لكنهم لم يستمعوا لى وأخذوا يلقون على مسامع رجال التعليم تفاصيل ما حدث سنة ١٩١٩ ويسترجعون كل لحظة من لحظاتها فى انفعال وحماس، وعتبوا علىّ عتبًا شديدًا لانقطاع الصلة طول هذا الوقت وكأننا نسينا أسوان التى لن تنسانا مهما مرت الأيام والأعوام، وقالوا للمستمعين: نحن الكبار نذكر حوادث هذه الثورة وما كان فيها من بطولات وتضحيات بكل فخر واعتزاز، لأن إقليمنا قام بدوره المجيد فيها، ونرويها لأولادنا وأحفادنا حتى أصبح الكل يعرفون مظهر وحبيب، بل إننا أطلقنا أسماءهم على الكثير من أولادنا تخليدًا لذكرى هذه الثورة (ثورة ١٩١٩)».

(٧٣)

ويتواصل الترحيب بمحمد مظهر سعيد دون أن نجد فى الرجل رغبة فى أن يوَفّى هذا الترحيب حقه الواجب بأن يبقى مع هؤلاء، أو أن يقرر العودة إليهم فى إجازة من إجازات نصف السنة، وكأنه لا يريد أن تبقى له صلة بماضيه فى الثورة إلا صلة الذاكرة، وهو شعور يتطلب قدرًا كبيرًا من الدرس والبحث والتأويل والتأمل:

«وحاول كل من الحاضرين أن يستضيفنى وكانت فى الواقع مشكلة وتخلصت منها بأنى جئت لعمل متواصل يشغل كل وقتى ولدىّ تقارير طويلة أريد أن أنجزها، لذلك لم أنزل فى فندق وإنما فى استراحة المدرسة، ولا أستطيع بحال أن أقبل ضيافة واحد منهم وأغضب الآخرين وهم جميعًا بمنزلة واحدة عندى، وقضينا الليلة فى النادى نتناول أحاديث الثورة، وعند الانصراف أقسم علىّ الشيخ أبو بكر كحالة أن أتناول طعام الإفطار بمنزله على عادة الأسوانيين».

«وزارنى فى المدرسة صباحًا وصحبنى إلى منزله الجديد، وفى الطريق أخبرنى عن وفاة شقيقه الأصغر البطل طه كحالة وهو فى عنفوان شبابه، وقال: إنه ذهب إلى

القاهرة بعد الثورة بخمس سنوات وسأل عنا وقابل الوالد والوالدة وعلم منهما أنى بإنجلترا وسأقضى سنوات طويلة، وأن حبيب أصبح مفتشًا للتعليم بالإسكندرية وتزوج أختى، وبعد الإفطار جاء حفيده مظهر الصغير وحيانى بحماس الطفولة وأخذ يسأل عما فعلت فى الثورة، وكان جده قد حكى له الشىء الكثير، وقال: «أنا بكرة لما أكبر راح أبقى بطل زيك»، فقلت: إن شاء الله وتكون أعظم منى، وقبلته، وانصرفنا لزيارة بقية الأصدقاء فى منازلهم ومتاجرهم، ومررنا بدكان الأسطى عبد الحميد الحلاق وكان يغفو على كرسى الحلاقة، ويغطى وجهه بمنديل، فاقترب منه الشيخ أبو بكر وهمس فى أذنه: «مظهر هنا يا عبد الحميد»، فقفز الرجل من كرسيه وهو يصيح: «مظهر وحبيب . . حلم ولا علم يانهار أبيض ياولاد!» وقبلنى وعانقنى وقال: ياسلام بعد الغيبة الطويلة دى مين يصدق ياولاد، الحمد لله اللى عشت لحد ماشفتك تانى، وفين حبيب أمال؟ ليه ما جاش وياك؟ بالله عليك تتفضل معانا ولا تسبناش تانى».

(٧٤)

بقى فى هذا الباب أن ننقل عن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ثناءه على الملخص الذى بعث به إليه صاحب المذكرات:

«. . . كنت أشعر دائمًا بأن هناك حلقة مفقودة فى السلسلة، وفصلاً ناقصًا فى تاريخ هذه الثورة، فليس من المعقول أن لا يشترك إقليم أسوان فى هذه الثورة التى عمت القطر، وقد وقفت فى سرد الحوادث عند أسيوط، وعذرى أن الصحف لم تشر إليها ولم يذكر أحد من أهلها شيئًا عنها، وقد سدت رسالتك الكريمة هذا الفراغ، وأكملت النقص، وأصبحت السلسلة كاملة الحلقات. وليتك كنت أرسلتها قبل طبع كتابى، وإنى لأرجو أن يمد الله فى الأجل حتى أضمها وأنوه بها فى طبعة جديدة للكتاب، فإن جهادكم فى سبيل الله والوطن عمل قد ينبغى أن يخلده التاريخ الحديث، وواجبك الوطنى يحتم عليك أن تسارع بإتمام كتابك الذى وعدت به، والمكتبة التاريخية فى أمس الحاجة إليه».

«القاهرة فى ٩ فبراير ١٩٦٣»

أما الدكتور محمد أنيس فقد قال فى رسالة مقاربة أرخها فى ١٤ فبراير ١٩٦٣ :

«قرأت مذكرتك المستفيضة وفى اهتمام بالغ عن الدور الذى قمتم به فى أحداث ثورة ١٩١٩ بمدينة أسوان، ووجدتها فى غاية الأهمية من الناحية التاريخية، وإنى أستسمح سيادتكم فى الإشارة إليها فى كتابى الذى أقوم بطبعه الآن تحت عنوان «دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩»، وهو دراسة مبنية على وثائق ومراسلات عبدالرحمن الرافعى».

«وإنى إذ أشكر لسيادتكم هذا الجهد العظيم فى سبيل إحياء وبعث أمجاد الحركة الوطنية فى مصر، أرجو أن تتقبلوا خالص شكرى وتقديرى لشخصكم ولماضيكم السياسى العظيم».

* * *